الحدود فى الإسلام

بين الوقاية والعلاج

د. محمود محمد عماره
الأستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة الايمان بالمنصورة
أمام جامعة الأزهر



الحدود فى الإسلام

بين الوقاية والعلاج

د. محمود محمد عمارة

أستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة الإيمان بالمنصورة

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع

المنصورة ــ أمام جامعة الأزهر

تليفون: ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كانت هذه الصفحات - ابتداء - أحاديث حول الآيات الأولى من سورة النور..

وبعد الانتهاء منها.. حاولت أن أواصل التأمل فى الآيات التالية والتى دارت حول حديث «الإفك» واستتبع ذلك إضافة نظرات قديمة فى الحدود فى الإسلام بين الوقاية والعلاج..

ووجدتنى فى النهاية أمام مجموعة من التأملات تدور حول قضية واحدة.. فآثرت أن يضمها كتاب هو هذا الذى بين يديك..

والله المستعان

د. محمود محمد عمارة



الفصل الأول

(١)

﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾.

إنها «سورة».. ومن معانى السورة: الشرف.. وذلك قول الشاعر:

ألم تر أن الله أعطاك سورة   تَرَى كل مُلْك دونها يتذبذب

أى أعطاك شرفا.. ثم هى مع ذلك شخصية مستقلة.. كبستان.. مسوَّر.. محدد.. لها محاورها التى تدور عليها.. ولها كذلك أهدافها التى ترمى إليها.

وهذا الشَّرفُ.. وتلك الشخصية مستَمدان من عظمة مُنْزِلها سبحانه وتعالى: ﴿سورة أنزلناها﴾.

وكان لابد أن يكون لهذه الميزة ردُّ فعل من قِبَل المكلفين.. الذين فرضها عليهم.. بل فرَّضها ـ مبالغة ـ ليلتزموا بما جاء فيها من آيات بينات:

آيات: لا آيةٌ واحدةٌ.. فهى من ناحية الكم وافرة.. ثم هى بينات.. فهى من ناحية الكيف: واضحة ظاهرة لعلكم ـ فى ضوئها ـ تَذَكَّرون مَا تَدلُّكم عليه. وما تدعوكم إليه..

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن: أليست كلُّ سورة.. شريفة.. محددةَ المعالم.. قد أنزلها الله تعالى.. لِنَفِيَ بحقها عاملين بما جاء فيها.. من آيات بينات.. تُذكِّر الإنسان بما استكن فى فطرته من الحق؟ والجواب: بلى..

وإذن فَلِمَ خُصت السورة بهذا الاستفتاح دون سور القرآن؟ ذلك بأنها تأخذ أهميتها لسببين:

أولاً: تنويه الرسول ﷺ بها: أخرج سعيدُ بن منصور وابنُ المنذر والبيهقى عن مجاهد: قال رسول الله ﷺ: «**علموا رجالكم سورة المائدة.. وعلموا نساءكم سورة النور**».

ولا يكفى مجرد الحفظ.. وإنما هو التعليم.. والتربية.. بما بَثَّ الله تعالى فى أعطافها من دروس..

وإذا كان ولا بد من حِرْفة.. تملأ بها المرأة فراغها.. وتُنعش اقتصاد البيت.. فإن تعلم سورة النور يبقى مع ذلك لازما.. وهو المعنى الذى ألْمَحَتْ إليه عائشة رضى الله عنها فيما رواه البيهقى فى الشعب عنها: «.. وعلموهن الغزْل وسورة النور»:

وإذا كانت تعلم سورة المائدة أليقَ بالرجال.. من حيث احتواؤها على قضايا.. منوطة أساسا بأعناق الرجال..

فإن تعلم سورة النور أليق بالنساء.. من حيث اشتمالها على آداب أُسْرةٍ هن ربّاتها.. والقائماتُ على مصالحها.. ومن هذه المصالح: التزامُ العفة إبقاء على البيت ثابت الدعائم موفور الأمان.

والسبب الثانى: أن أعدى أعداء الإنسان.. وهو الشيطان يلاقيه بسلاحين اثنين:

أ ـ سلاح الشهوة.. يدمر بها الأخلاق..

ب ـ وسلاح الشبهة.. يُفْسِدُ بها العقيدة.

أما سلاح الشبهة: فقد فلَّته السورة بما تضمنت من دلائل التوحيد والقدرة فى قوله تعالى: ﴿ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير﴾... ﴿ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما..﴾... ﴿يقلب الله الليل والنهار﴾.

وأما سلاحُ الشهوة: فقد تصَدَّت له السورة الكريمة فى مستهلها بما اشتملت عليه من وقاية وعلاج لأمراض الأسرة.. بادئة بقوله تعالى:

﴿الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ على نحو كانت به أجدرَ السور بتثبيت قيمة الستر والعفاف.. صيانةً للمجتمع المسلم من الأكدار.. هذا الستر الذى يجب أن نتخلق به.. تخلقا لأننا عبيدُ الستار.. الغفار.. والذى كان من آثار ستره ما قال الإمام الغزالى:

إن الله تعالى كثيرُ الستر على عبيده... ومن ستْره سبحانه: أنه أظهر الحَسَن من الجسد. وأخفى القبيح منه: كما قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾.

فأخفى الدماء فى العروق. وأخفى العروق تحت الجلد. وجعل موطن الخواطر هو القلب.. فلا يطلعُ عليه إلا الله. ولو اطلع الخلق على ما يدور فى قلبك لمقتوك ولكنه ستّر الله سبحانه .!!

اللهم أسبل علينا سترك. ثم افعل بنا بعد ماتريد

أما بعد : فإنها سورة ﴿أنزلناها﴾ وضمير العظمة هنا يعنى: أن كلامها ليس هيّنا ككلامكم.. ولكنه كلام القاهر فوقكم.

ثم ﴿فرضناها﴾: يعنى: ليست مجرد وصايا.. تختارون منها ما يوافق أمزجتكم.. بل هى مفروضة.. ولا مفر من الالتزام بكل ما جاء فيها وإن لم ينسجم مع أمزجتكم المتقلبة.

ثم إنها ﴿آيات﴾... آيات.. لا آية واحدة.. وفى نفس الوقت: ﴿بينات﴾.. واضحات.

وإذن: فلا عذر لكم إذا قلتم: إننا لم نفهمها!! إنها بوفرة آياتها.. آخذة بحجزكم.. محيطة بكم.. ثم هى بوضوحها كاشفة عثرات الطريق.. مشيرة إلى الغاية التى ترونها.. هناك.. فى نهاية الطريق.. فخذوا سبيلكم إليها راشدين.

(٢)

﴿الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة..﴾

(أ)

تمهيد:

يقرر البصراء: أن الزنا بغيض: بغيض: قانوناً. فقد أجمعت الشرائع على تحريمه.

ومن الناحية الأخلاقية.. فهو معدود فى أمهات الرذائل.

ومن الناحية التاريخية: فهناك إجماع على تحريمه منذ كانت هناك حياة..

لماذا؟

لأن ابن الزنا يوكل إلى أمه التى لا تحسن تربيته: إلا فى ظل رجل هو الزوج الذى وضع فيها النطفة فى ظل هذا الميثاق الغليظ.

ثم إن الزنا ضد التمدن الإنسانى: لأن التمدن ناشئ ابتداء عن أسرة يتكون منها مجتمع فاضل له أصوله القائمة.

ولهذا.. لم يكن للمجتمع أن يجيزها لو تراضى الطرفان.. وإنما حقه قائم فى التصدى لها.. ولأنها من الخطورة بمكان.. فقد كان الاحتياط فى إثباتها بالغا مبلغا عظيما لا يحتمل الشك.. حتى إنه ﷺ فى خطابه «لماعز» الذى اعترف بالزنا.. لفظ بالكلمة النابية.. كلمة الزنا ـ وللمرة الأولى والأخيرة.. فى حياته الشريفة..

﴿ **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين**﴾.

الآية الكريمة حلقة ذهبية فى سلسلة الآيات البينات الوارد ذكرها فى الآية السابقة.. تطالعنا حاملة درسا فى التربية القاضية بضرورة إعداد ذهن السامع وقلبه.. ليأخذ الأحكام بقوة وعزم.. عن طريق الإجمال أولا.. ثم التفصيل بعد ذلك.. وبعد أن يترك الإجمال أثره فى ذهن السامع انتباها.. وفى قلبه شوقا..

وفضلا عن ذلك فإن فى الآية دروسا أُخَرَ فى التربية والدعوة نجملها فيما يلى:

١ ـ تعلن الآية الكريمة فى صدرها حملةً شعواء على تلك الجريمة النكراء.. لتُنشِئَ فى الوجدان وفى اللحظة الأولى الإحساس بشناعة الجريمة المشار إليها: بالجلد.. وهو عقاب مؤلم.. ومهين فى نفس الوقت.. وبعدَمِ الترخص فيه.. راجعا كلُّ ذلك إلى الإيمان وما يتطلبه من صرامة فى إقامة حدود الله فى الأرض ومن شأن الإحساس بشناعة الجريمة ابتداء.. أن يحمل النفس على الفرار من الجريمة جملة.. وتفصيلا..

وهذه واحدة من قواعد الإسلام التى تهجُم على النفس.. وبقوة.. وبلا

هوادة.. إرادة اقتلاع جذور الشر منها.. فلا تفكُّرُ فيه..

٢ ـ وقد جاءت الآية الكريمة بإفراد الزانية.. والزانى.. ولم تقل: الزانيات.. وربما كان الإفراد.. تقليصا للظل الكئيب الذى يُسوِّدُ مساحة أكبر فى صفحة البيئة الإسلامية الطهور. فالإفراد.. يجعل من الجريمة نقطة.. ونقطةً واحدةً فى الثوب الأبيض. وليست خَطا بارزاً فيه.. فلعل الراغبين فى التشهير أن يكفوا ألسنتهم.. ويحسنوا الظن بالمسلمين.. ولا يتلقَّوْن كل خبر بألسنتهم.. قائلين بها ما ليس لهم به علم.

٣ ـ ويلاحظ أن الآية الكريمة اقتصرت على عقوبة غير المحصَن.. بعد ما نُسِخت آية الرجم تلاوة.. وبقى حكمها.

يقول ابن الجوزى رحمه الله:

[تفكرت فى السرّ الذى أوجب حذف آية الرجم من القرآن لفظا. مع ثبوت حكمها إجماعا. فوجدت لذلك معنيين:

أحدهما: لطفُ الله بعباده فى أنه لا يواجههم بأعظم المشاق.. بل ذَكَر الجَلْد. وستر الرجم.

ومن هذا المعنى قال بعض العلماء:

إن الله تعالى قال فى المكروهات ﴿كتب عليكم الصيام﴾ و﴿كتب عليك القتال﴾ على لفظِ ما لم يسمَّ فاعله، وإن كان قد عُلم أنه الكاتب.

فلما جاء إلى ما يوجب الراحة قال: ﴿كَتَبَ ربكم على نفسه الرحمة﴾.

والوجه الثانى: أنه يبين بذلك فضل الأمة فى بذلها النفوس اقتناعا ببعض الأدلة... فان الاتفاق لمّا وقع على ذلك الحكم كان دليلا. إلا أنه ليس كالدليل المقطوع بنصه... ومن هذا الجنس: شروع الخليل عليه الصلاة والسلام فى ذبح ولده بمنام. وإن كان الوحى فى اليقظة آكد][1].

وربما جاز لنا أن نقول: إن الاقتصار على عقاب غير المحصَن.. اقتصار على

الصورة المتوقعة.. صورة رجل.. مكشوف.. بلا حصن يحميه.. تستبد به غريزةٌ شرسة.. وليست له زوجةٌ يفيء إليها.. ليعفَّها وتعفه..

وهى فى نفس الوقت.. تَجاوزٌ لصورة الشيخ.. أو الشيخة.. والتى لا يمكن أن يهجس خيال بإمكان تورطهما فى الجريمة.. وهو حُسْنُ ظن بهما.. يحمل على البراءة منها.. بقدر ما هو اقتلاع للنوازع السوء فى قلوب شباب يمكن أن يجرِّئهم تصور تورط الشيوخ.. ليجربوا.. وبئس ما يجربون!!

أما بعد: فمن واقعية الإسلام هنا أنه لا ينتزع الرحمة من قلوبنا انتزاعا.. وما تزال فى القلوب مساحة للشفقة الجبليَّة:

إن رحمتنا بالمذنب بإقامة الحد عليه. وكما قالوا: [فنحن وإن رحمناه لجريان القدر عليه فلا نرحمه من هذا الجانب..].

(ب)

أيهما أجدر بالعقاب الشديد؟.. الزانية أم الزانى؟!

سؤال طرحه المفسِّرون.. بعد اقتناعهم بالمسؤولية المشتركة التى تنتظم الاثنين معا... وقد جاء الجواب صادرا عن فهم عميق لطبيعة الرجل والمرأة.. وكيف كان لكل منهما مجاله الذى يتحمل فيه مسؤوليته الخاصة.

جاء فى الفتوحات الإلهية: [وتقديم الزانية على الزانى: لأنها الأصل فى الفعل لكون الداعية فيها أوفر... ولأنها الماسكة بزمام المبادرة ولولا تمكينها منه لم يقع].

قال الكرخى: [فإن قيل: لم قُدمت المرأة فى آية حد الزنا، وأخرَت فى آية حد السرقة.. فالجواب : أن الزنا إنما يتولد بشهوة الوقاع. وهى فى المرأة أقوى وأكثر. والسرقة إنما تتولد من الجسارة والقوة والجرأة. وهى فى الرجل أقوى وأكثر].

ويجىء قوله تعالى: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله﴾ يجىء فى أوانه:

---

(١) صيد الخاطر: ٩١، ٩٢.

فقد يتقادم العهد بالجريمة.. نظرا للوقت الذى تتطلبه إجراءات التحقيق.. وعندئذ.. قد ينسى الناس بشاعة الجريمة التى غام مشهدها فى الأذهان.. ثم تنبعث من قلوبهم مشاعر الإشفاق على الزانى.. الذى قد يُخَلِّف من بعد رجمه ذرية ضعافا.. إلى غير ذلك من الدواعى وقد تسترخى السياط فى أيد واقعة تحت ضغط الرحمة. عندئذ وهنا يجىء هذا المقطع من الآية الكريمة حاسماً القضية.

فلا مكان هنا لأدنى درجات الرأفة بمذنب عكَّر صفو الحياة بفعلته النكراء:

والمطلوب هو: إقامة الحد.. وإقامته كاملا غيرَ منقوص.

وهذا هو دين الله وشرعُه.. الذى يجب أن يُنفذَه المؤمنون بحكم إيمانهم..

إن ما حدث كان عدوانا على هذا الإيمان.. وطبعى أن تنتصر قيم هذا الإيمان المفترى عليها بإقامة الحد.. طاعة لله تعالى.

المهم هو: العدل.. بلا إفراط.. ولا تفريط وفى الحديث: «يؤتى بوال نَقَصَ من الحد سوطا فيقال له: لم فعلت ذاك؟ فيقول: رحمةً لعبادك. فيقال له أنت أرحم بهم منى؟ فيؤمرُ به إلى النار. ويؤتى بمن زاد سوطا فيقال له: لم فعلت ذلك؟ فيقول: لينتَهُوا عن معاصيك. فيقول: أنت أحكم بهم منى فيؤمر به إلى النار». وتأمَّل كيف كان الطريق إلى النار مفروشا بالنوايا الطيبة: فمع أن الوالىَ هنا قد صدر فى حال شفقته. وشدته عن غيْرة شديدة على الإسلام والمسلمين.. لكن ذلك لم يَشْفَع له.. لأن الغاية لا تبرر الوسيلة.

ولكن: لماذا شهودُ طائفةٍ.. ومن المؤمنين بالذات؟

إن المذنب هنا لو تلفَّت.. ليجد رفاقه من قرناء السوء لما كان هناك حَرَج من رؤيتهم بل ربما كانت رؤيتهم بعض عزائه.. فليس هو المذنب الأول.. ولا المذنب الأخير..

أما وجود طائفة من أطهارِ الأمة حوله ساعة التنفيذ.. فهو جزء من عقابه النفسى..

قال الرازى: [على أن الذين يشهدون يجب أن يكونوا على الوصف (الإيمان)

لأنهم إذا كانوا كذلك: عظُم موقعُ حضورهم فى الزجر وعظم موقعُ إ
شاهدوا. . فيخاف المجلود من حضورهم الشهرة. . فيكونُ ذلك
الانزجار].

والقاعدة تقُول: [إن الفاسق بين صلحاء قومه أخجل].

وهذا أسلوب فى الردع يجتمع به الأضداد وجها لوجه. . ليَ
الحسن. . وقُبْح القبيح.

وليتنا فى حملتنا على منكرات العادات نجمعُ بين مَنْ يدخّن. . ومن
فى لقاءات. . يتبين بها ـ وبطريق غير مباشر ـ كيف يبدو المدخِّن
يدخنون. . ذابلا. . كسولا. . بينما هم من النضارة والنشاط على أوفى

وهو لون من العقاب غير المباشر نطفئ به القنديل فى وجه العاصى
ما. . لِنُشعر العصاة من خلاله بأنهم: أذلاء. . ولو تهادت بهم ال
[وركبوا المرسيدس]. .

أبى الله إلا أن يُذل من عصاه!

(جـ)

من أسرار شهود الطائفة المؤمنة

يقرر العلماء: أن الإسلام دقيق كل الدقة فى تقدير العقوبة. م
دوافعها. وأهدافها. وظروفها. . وبنفس القوة: فهو عادل كل العدل فى ت

أهداف العقوبة:

١ ـ تأديب الجانى.

٢ ـ إرضاء المجنى عليه.

٣ زجر المعتدى. . فى مثل قوله تعالى: ﴿وليشهد عذابهما طا
المؤمنين﴾.

وعن طريق هذه الطائفة ينتشر الخبر. . على نحو يُقنط أهل الدعارة.
لا يواصلوا المسير فى رحالة الإثم والعدوان.

من أهداف النشر:

ولهذا النشر أهداف ذكرها المجربون. . . . تتلخصُ فيما يلى:

١ ـ تربية المجتمع: وذلك عن طريق نشر خبرها. . لا تشهيرا. وإنما ليفيد بشاعة الجريمة. . وأنها لا تفيد.

٢ ـ إنذار الأمة بخطر قادم: إن نشر الخبر مصحوبا بالتهوين من شأنه يضعف عناصر الردع فى القلوب. . وذلك مثل قولهم: اللص الشريف!!

وقد يضفون عليه وصف البطولة الرومانسية. . مما يشجع الشباب على التقليد. . من حيث كان مدفوعا بغريزة التقليد.

(٣)

﴿الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾.

من بين ما تعيه الذاكرة. . قصةُ تلك المرأة التى كان يأتيها الرجل راكبا ناقته. ثم يقول لها وقبل أن يهبط من فوق ناقته: خَطِّب! فتبادرُه قائلة: نكح!

فإذا قال لها: قَبل. . قالت له: أنخ!!

وينزل الرجل ليصير فى لحظة خاطفة زوجا لها. . هكذا بلا مقدمات. . حتى أنها لا تفكر فى هذا الزوج: ما اسمه؟!

وهكذا: كما أن الخبيثين للخبيثات. . فإن المتسرعين للمتسرعات! . . . الذين تهجم بهم نزواتهم على ما يُشبع نهمتهم الجنسية. . دون تمحيص. . وبلا نظر إلى العواقب. . اللهم إلا قضاء الوطر أولا. . وقضاء الوطر عاشرا. .

وما هكذا يا سعد تورَد الإبل. . ولكن الزواج شركة أبدية. . تتخطى حواجز الحياة. . ليبقى وُدها موصولا. . إلى أن يلتقى الزوجان مرة أخرى. . وفى روضات الجنات. وهو المعنى المراد من الآية الكريمة والذى يلفت الحق به أنظار الأمة حتى تكون نظراتها إلى الزواج أرقى وأنقى. .

عن عبد الله بن عمر قال فى سبب نزول الآية الكريمة [كنّ نساءً معلومات:

فكان الرجل من فقراء المسلمين يتزوج المرأة منهن، لِتُنفق عليه فنهاهم الله تعالى عن ذلك].

بل لقد ذهب الإمام أحمد ـ كما جاء فى الظلال ـ ذهبَ إلى تحريم مثل هذا الرباط بين زان وعفيفة. وبين عفيف وزانية.. إلا أن تقع التوبة التى تُطهِّرُ من ذلك الدنس المنفِّر.

وعلى أية حال: فالآية تفيد نفور طبع المؤمن مِنْ نكاح الزانية.. ونفور طبع المؤمنة من نكاح الزانى باستبعاد وقوع هذا الرباط بلفظ «التحريم» الدال على شدة الاستبعاد.. وحرِّم ذلك على المؤمنين.

وبذلك تقْطعُ الوشائج التى تربطُ هذا الصنف المدنّس من الناس بالجماعة المسلمة الطاهرة النظيفة أ هـ

إن الخبثاء.. وإن الخبيثات منطقيون فى ميولهم مع أنفسهم:

[لأن الفاسق الخبيث ـ كما جاء فى الفتوحات الإلهية ـ الذى من شأنه الزنا.. لا يرغب فى نكاح المرأة الصالحة.. وإنما يرغب فى نكاح فاسقة مثله.. أو فى مشركة. والفاسقةُ لا ترغب فى نكاح الرجل الصالح.. بل تنفِر عنه.. وإنما ترغب فيمن هو من جنسها من الفسَقَة المشركين].

والهدف من وراء هذه الحملة الشعواء هو زجر المؤمنين عن التزوج بالزوانى.. وزجر المؤمنات كذلك.. بعد زجرهم عن الزنا ابتداء..

ولقد كان لهذه الحملة ما يسوغها وهو الفرار بالمسلم من مواطن الانحراف.. إلى حيث الطهر والعفاف.. ليظل وفيا لإيمانه.. الذى يؤتى أكله فى تلك البيئة الطهور.. بقدر ما يذبل عوده.. فى البيئة الدنسة النجسة..

يقول الرازى.. فى تعليل ذلك: [فيه تشبه بالفساق.. وحضورُ مواضع التهمة.. والتسببُ لسوء المقالة فيه والغيبة.

وكم فى مجالسة الخاطئين من التعرض لاقتراف الآثام.. فكيف بمزاوجة الزوانى والفجار].

إن المؤمن أسد.. والأسد لا يأكل من فريسة غيره.

ومن طبيعة الإباءِ فى الأسد ما ذكره الشاعر:

وتأبى الأسدُ ورودَ ماءٍ إذا كان الكلاب ولَغْن فيه

وليت شعرى:

إن الإنسان لا يأكل من صيدٍ سبقه الكلب إليه.. والجمل الأبى.. لا يشرب من مكان البقرة.. وهكذا رأيت بعينى!!

وفى الآية الكريمة حسنُ ظنٍّ بالمرأة يجب أن تقيه عقولٌ تظن اليوم أن الإسلام لا يقف إلى جانبها:

فالآية الكريمة تقول:

﴿الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾ وهذا يدل على أن الزانى لا يرغب إلا فى نكاح الزانية .. كما قيل بحق ـ أما بالنسبة للمرأة فإن الآية الكريمة لا تقول: والزانية لا تنكح إلا زانيا.. وإنما تقول: ﴿والزانية لا ينكحها إلا زان﴾ مما يدل على أن الزانية قد تَعِف يوما وترغب فى نكاح غيْرِ الزانى.

وسبحان من هذه كلامه.. وجلّ من هذه أحكامه:

إن المرأة بحكم أنوثتها أشدُّ إحساسا بألم الخطيئة.. من حيث الآثار التى تلحقها دون الرجل.. ومن بين ركام الخطايا.. قد تنبعث رغبة ملحة فى الخلاص.. مع زوج رشيد.. تستأنف معه الحياة من جديد.

(٤)

﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾.

ـ أ ـ

من دروس القرية قولهم:

إذا وقعت البقرة كثرت السكاكين!! أجل.. تكثر السكاكين حينئذ.. لأنها لمَّا

وقعت على جنبها.. أو على ظهرها فَقَدتْ عنصرَ المقاومة.. بعد أن طُرِحت أرضا.. وفى هذه اللحظة: تجد كل الناس يجيد الذبح!

ومن حظائر البقر.. إلى دنيا البشر. لتجد نفس المعنى:

فلو تحرك لسان باتهام أحدٍ من الناس، فسُرعان ما يُغَبِّشُ الاتهامُ الجو من حوله..

ثم يَجدُ المغرضون فرصتهم المواتية فيُطلقون ألسنتهم بالحق وبالباطل.. بعد أن أحدثت الرصاصة الطائشة دَوِيًّا فى الأسماع. ثم يحدث من البلبلة ما يتعذر معه على المتهم البرىء.. أن يدافع عن نفسه..

وتجيء الآية الكريمة نذيرا يحذِّر المغرضين الظانين بالناس ظن السَوْء.. حتى لا يحاولوا تلويث سمعة المؤمنين.. والمؤمنات.. وإلا.. فالعقاب الرادع. يوشك أن يحيط بهم.

العقاب: حتى على الهمسة.. أو الحركة.. سدا للذرائع.. وصيانة للأعراض أن تلوثها الأغراض..

ذلك بأن التساهل مع الصغيرة سيجعل منها كبيرة.. وهو ما عَنَاهُ الشاعر القائل:

إذا نحن طامَنَّا لكل صغيرة فلا بد يوماً أن تُساغ الكبائر!

وإذا كان قَذْفُ المحصَن من الرجال كقذف المحصنة من النساء.. فإن الآية الكريمة تقتصر على رميهن بخاصة.. لما فى وضعهن من الحساسية.. وعجزهن عن الدفاع عن أنفسهن.. فى الوقت الذى قد تحمى الرجل رجولتُه فيتبجح مدافعا عن نفسه بالباطل.. وقد ينجح فى نفى التهمة عن نفسه ولو إلى حين لكن تهمة المرأة.. لا تُنْسى.. وإذا نُسيت فبعد حين من الدهر.. طويل.

لكن.. ما هو ردُّ فعل الآية الكريمة لَّما نزلت؟ كيف تلقاها الحسُّ العربى.. المرهَف.. المندفع.. وأغلى ما يملكه هو العرض.؟ وكيف يغالب الزوجُ المكلوم غضبته المُضرِيَةَ.. لو وَجَد فى بيته رجلا. ومع امرأته؟!!

تقول الرواية: لَمَّا نزلت الآية الكريمة: قال عاصم بن عدى الأنصارى:

[إن دخل رجل منَّا بيته. فوجد رجلا على بطن امرأته: فإن جاء بأربعة رجال يشهدون بذلك.. فقد قضى الرجل حاجته، وخرج، وإن قتله.. قُتل به.. وإن قال وجدت فلانا مع تلك المرأة.. ضُرِب.. وإن سكت.. سكت على غيظ. اللهم فافتح]!!

فانظر ماذا ترى: ترى عاصما رضى الله عنه يستقبل الآية الكريمة بحسه العربى الأبى فيشعرُ بضغوط ثقيلة.. تئُودُه.. وهو منطقىٌّ مع نفسه كعربى.. على ما يقول الشاعر العربى:

تهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلَم أعراض لنا وعقول

وإنه لشىء محزن حقا أن ترى.. وتسمع.. ثم إذا لم تأت بشهود ضُرِبتَ الحد.. وضُرِب بقولك عُرض الحائط.. وصحيح أنك عربى يأبى الضيم.. يبذل حياته رخيصة حماية لعرضه.. ولكن الإسلام يسد منافذ الفتنة.. ويحميك بإقامة الحد من نفسك.. ثم يحمى البيئة من فساد عريض ثانيا.. والأمر هنا لا يتعدى أن واحدا فقط.. هو الذى رأى الجريمة.. وهو أنت.. أما لو أخذنا شهادتك قضيةً مسلمة فسوف يكون هناك آلاف ترى مثلما رأيت بعد ثبوت التهمة.. ويكفى احتراق أعصابك من الداخل ويجب أن نَحْمِيَك من هجوم المجتمع من الخارج..

تكفى فى الحرب النفسية جهةٌ واحدة! ألا وإن ثمانين جلدة تتلقاها على ظهرك.. أسهل مائة مرة من ألف لسان ولسان يلاحِقُونك باللوم والتثريب.. والتعذيب!!

ـ ب ـ

يقولون: إن البيئة الخِصْبة الجميلة المعتدلة الهواء.. هذه البيئة تقوِّى الأجسام. وتتسعُ فيها المدارك.. ويخَصُب فيها الخيال.. ويصفوا الذهن.. وتُسرِعُ البديهة.

وإذا كانت هذه آثارَ البيئة المادية.. فكم تكون الآثارُ عظيمةً.. لبيئة فاضلة كاملة.. بيئةِ الطّهر والعفاف.. والتى تترك انطباعاتها ولا شك على الأفراد..

طهرا وعفة.. وهذا ما استهدفه الإسلام عندما سنّ من الآداب ما يصون الأسرة من الانهيار.. وفى مقدمتها ضرورة السّتر.. وحفظ اللسان حتى لا يفسد بالتهم المتسرعة هذا الجوّ الطهور..

وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة التى يقى الله بها الأمة من التفكك والاندثار.

والآية الكريمة الأولى ـ قد تشكّل ضغوطا نفسية فى حس العربى الأبى ـ وقد كان موقف عاصم بن عدى رضى الله عنه ـ والذى أشرنا إليه آنفا ـ تعبيراً عن ذلك..

ولكنه لم يكن وحده.. فقد كان له رفيق على الطريق هو سعد بن عبادة رضى الله عنه سيد الأنصار والذى قال فور نزول الآية الكريمة: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: **«يا معشر الأنصار: ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟!!»**

قالوا: يا رسول الله: لا تلمه.. فإنه رجل غيور... والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرا. وما طلّق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها. من شدة غيرته.

وعلى الفور قال سعد: والله يا رسول الله إنى لأعلم أنها لحق وأنها من الله.. ولكن تعجبت أنى لو وجدت لكاعاً قد تفخّذها رجلٌ لم يكن لى أن أهيّجه.. ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء.. فوالله إنّى لا آتى بهم حتى يقضى حاجته.

إن سعدا رضى الله عنه ـ ككل الصحابة ـ كان يستقبل الآيات الكريمات من قبل ومن بعد.. بكل طاقة السمع فيه.. راجيا أن تكون كل جوارحه آذانا لتستمتع بما يسمع!!

لكنه اليوم.. يتساءل: أهكذا أنزلت يا رسول الله.. إنها الغيْرة الغلاّبة إذن.. هى التى حملته على أن يقول ذلك.. ولم يُضِفْ دفاع الصحابة جديدا إلى معلومات رسول الله ﷺ عن سعد.. فهو مثلُهم يعرفه.. بل إن معرفته به.. لأعمق غوْرا.. ومن ثم جاء تعليقه ﷺ فيما يشبه عتاب الأحباب:

«يا معشر الأنصار: ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟!»

وإنه لجميل حقاً أن يتكفَّل الصحابة بالدفاع عن أخيهم.. في موقفه الحَرِج.. وما أكثر الذين يَعُدُّون حبات السبحة عدا... لكنهم يَسْعَدون حين يشاهدون.. يشاهدون أخاهم في ورطته ثم لا يتحركون.. وقد يَسْعَدُون!!

وهو درس نرجو أن يكون مفيدا يعلِّمنا أدبَ الأخُوَّةِ الرامية إلى انقاذِ العاصي من ورطته.. من محنته..

بل السعيد بنجاته من هذه الورطة.. بمثل هذا الاعتذار عن سعد رضي الله عنه.. والذي ظل مع موقفه سيدَ الأنصار.. ولم يُنْزِله الخطأ العارض من مكانه العالي.. وطوبى لعبد آخذ بِعنان لسانه يَحجُزه عن الخوض في أعراض الآخرين..

وما أسعدنا بالإسلام الذي يحمينا من أن نضع أقدامنا فوق الرمال الناعمة.. والتي ستجرنا يوما من سوء الفعل.. إلى سوء الظن.. إلى معاداة الآخرين. وصار أمرنا على ما يقول الشاعر:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدَّق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيه بقول عداته وأصبح في ليلٍ من الشك مظلمِ

- جـ -

إذا كان عقاب من يرمي المحصنات رادعا.. كما أفادت الآية الكريمة.. فإنه لكذلك رادع لمن رمى محصنا.. وإنما اقتصر على رمي المحصنات.. لما يترتب على رميهن من محاذير.. في مقدمتها تأثر وضع المرأة كأنثى بما يشاع عنها.. ونفورُ الطبيعة من الثقة بها وكما قالوا: إن العربي لَيفَضِّل الزواج من المشركة التي أعلنت إسلامها على الزواج من مسلمة شاع من حولها الكلام وذاع!!

وتُؤْثر الآية الكريمة الفعل ﴿يرمون﴾ إشارة إلى أن التهمة ليست مجرد ألفاظ.. وإنما هي شواظ من نار.. يدمِّر سمعة الآخرين.. أرأيت إلى القذيفة تُسدِّدُها إلى إنسان. فلا تصيبُه وحده.. وإنما تتفجر.. وتتطاير شظايا تجرح الأبرياء.. وكذلك التهمة يُطلقها لسان غير مسؤول: إنها لا تضر المرأة فقط.. وإنما يتسع مداها لتصيب: الزوج.. والأب.. والإخوة.. والأعمام والأخوال..

ومِنْ حرص الإسلام على أن يبقى المجتمع سليما معافى.. نظيفا.. لا

تُصَرِّحُ الآية بالمَرْمِىِّ. . فجاء الفعل ﴿يرمون﴾ بلا مفعول. . ليشمل أولا حتى اللفتة. . المؤذية. . الجارحة. . وليصون الأسماع عَن تهمةٍ تترك آثارها فى الجو. . الذى يفسُد بها. .

ولا تقول الآية الكريمة [يرمون المحصنات المؤمنات] وإنما: تقول: المحصنات. . وبإطلاق. . مسجلةً شَرَفَ العرض. . وضرورة حمايته من الدنس. . ولو كان عرضَ يهودية أو نصرانية؛ ما دامت عفيفةً. تجعل من حيائها وأدبها حصنا يسترها. وهى لفتة كريمة تذكرنا بما أشار إليه علماؤنا من أن العرض لشرفه فى أمتنا ـ ليس له كلمة مقابلة تُساويها فى معناها فى أية لغة من لغات العالم. .

ولئن دل ذلك على شيء فإنما يدل على نفاسته. . وضرورة حياطته بسياج متين. . ومن مظاهر حرمته. . سترُه ليظلَّ فى مأمنه. . بعيدا عن كل ما يَشين. .

هذا السِّتّر الذى يشكل قيمة ينبغى الالتزام بها. . والذى عبر عنها الأعرابى بقوله: اللهم أسبل علينا سِترك. . ثم افعل بنا بعد ما تريد!!

وقليل من التأمل واصل بنا إلى ترسيخ هذه القيمة فى وجداننا:

فالخالق سبحانه وتعالى يعاملنا بالسِّتْر. . ولو أراد سبحانه وتعالى لفضَحَنَا. . ولو فى عقر دارنا. .

وإذن. . فقد ترى من غيرك ما لا يسرُّك. . وقد تسمع. . فحاول أن تحفظ السر. . فلعل المذنب أن يعود إلى ربه تائبا. . ولا يتم ذلك إلا بالتدريب على حفظ سرك أولا.

وكما قال ابن الجوزى: لا ينبغى للعاقل أن يُظهر سرا. حتى يعلم أنه إذا ظهر لا يُتأذى بظهوره. ومعلوم أن السبب فى بَثِّ السر: لطلب الاستراحة بِبَثّه.

وذلك ألمٌ قريب. . فاصبر عليه فرب مُظهِرِ سرٍ لزوجته. . فإذا طُلِّقَتْ بَثّتْهُ. . وهلك. . أو لصديقه: فيظهرُه عليه. حسداً له إذا كان مماثلا. . وإن كان عامِيا فالعاصِى أحمق. . . ورب سرٍّ ظهر فكان سببَ الهلاك؟

ومن رحمة الله تعالى أنه لم يجعل أحدا تحت رحمة أحد! فَمَنْ لم يكن له من نفسه واعظ يردعُه عن الولوغ فى أعراض الناس. . فإن الله تعالى له بالمرصاد

بما أعدَّ له من عذابٍ حسِّى.. ونفسىٍّ.. بمقدار ما قَدَّمَتْ يداه من جُرمٍ يعود عليه.. جزاءً من جنس عمله.. وهو المشار إليه فى قوله تعالى: **﴿فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون﴾**.

ـ د ـ

يتعامل الإسلام مع الطبيعة الإنسانية بواقعية.. واقعية تعترف بنوازعها الطبيعية التى لا يكبتها.. وإنما يتسامى بها..

وحين يُرتَكَبُ الذنب يوما.. فذلك أمر وارد.. تحت ضغط هذه الطبيعة الغلابة.. ثم وفى نفس الوقت يظل طريقُ العودة مفتوحا بالتوبة النصوح نغسل بها أوضار الماضى:

وذلك قوله تعالى: **﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾**

إن الله تعالى كان.. وما زال غفورا رحيما.. يفرح بتوبة عبده.. فرحا أشدَّ ممَّن فقد راحلته.. وأطل عليه الموت.. ثم وافته الحياة من جديد..

لكن ما هى حدود هذه التوبة؟ إن حجم الجريمة كان كبيرا.. فلم يكن أثرُها فرديا.. ولكنَّ آثارها كانت واسعة.. حين أصاب رذاذُها أبرياءَ غافلين.. فى بيوتهم.. ثم إنها قذيفة لم تسدد إلى عيوب شكلية أو خِلقية أو ماليةٍ يمكن التغاضى عنها.. وإنما هى مُسدَّدة إلى القلب.. إلى العرض.. إلى الشرف.. وربما كان الرامى شخصا مرموقا فى المجتمع.. ومن ثم فربما اغتر الناس بموقعه فى المجتمع فَصَدَّقُوه فيما قال.. وفيما كال من تهم نكراء.. وإذن.. فلا بد من توبة.. وتوبة نصوح:

ولا تكون نصوحا.. حتى تمحوَ آثار الذنب محوا.. وتُسدل الستار على شائعات كان لها دوىٌّ فى كل بيت.. وعلى كل لسان.. ويجىء قوله تعالى بعد ذلك: **﴿وأصلحوا﴾** ليعطى التوبة بهذا الإصلاح بُعْدها الحقيقى. لا يكفى أن يقول فقط تُبت إلى الله.. بل.. كما قال المفسرون: [بعد مضى سنة: تمر عليه كل الفصول الأربع التى تتغير فيها الطباع والأحوال].

فإذا دار الفلك دورته وبقى المذنب التائب ثابتا على توبته.. لم يَسلْ منه اللعاب لممارسة هوايته القديمة فى تجريح الآخرين.

وإذا مرت بالقرية أزمات.. وغطَّت أجواءَها سحابات.. فإذا هو وقد تغير حاله: فكان رحمة يصل تعالى به ما انقطع.. مصلحا بلسانه وعمله ما أفسد. فقد صار من اليوم عضوا فى جسد الأمة.. وزال عنه الحكم القديم..

ذلك بأن المتهم قد يكون عالما مثلا.. ولاشك أن اتهام العالم إزراء بعلمه وصدٌ للناس عن الاستماع إليه والأخذ عنه.. وإذن.. فما أفدح الخسارة.. خسارة الدعوة.. وخسارة العالِم معاً. العالِم الذى يعطيك.. ثم لا يسألك أجرا وإذا به لا يتلقى منك شكرا وإنما يتلقى منك حجرا.. ومن مصلحة المجتمع أن تَثْبت براءته.. ليبقى فى موقعه العالى مُربيا.

ولابد أن يقول من اتهمه: أنا كاذب.. كاذب.. كاذب فيما رَمَيْت العالِم به!!

ألم تر إلى الخَبرِ الكاذب تنشره الصحيفة حول واحد من الشرفاء؟

وكيف كان الرد.. فى نفس الصحيفة وفى نفس الصفحة.. ليَقْرأ التصحيح.. من قرأ التجريح.. وإذا كان إعلان الكذب يضر فردا.. هو المتهم.. فإنه فى نفس الوقت يُنْقذ عالِماً.. بل عالَماً.. لتبقى الثقة واصلة بينه وبين مريديه..

أما بعد:

فإن ناسا يتلذذون بأخبار الشر.. ثم يتلقفها آخرون.. فيضيفون إليها ما شاء لهم هواهم. وأخيراً يحدث ما لا تحمد عقباه وهو:

انتهاز الأعداء هذه الفرصة ليتخذوا من هذه الشائعات سلاحا. سلمناه إليهم برضانا.. مع أن روح الإسلام تأمر بالستر.. حتى لا نمكن الأعداء من رقابنا:

وهكذا فعل المخلصون الذين لم يقدموا للأعداء هذه «التسهيلات» وإنما كان دينهم الستر أولا.. والستر أخيرا:

عن ابن عمر رضى الله عنه:

بينما أبو بكر الصديق فى المسجد.. إذ جاء رجل عليه لوث من كلام ـ كلامه غير واضح لأنه فزِع قلق ـ وهو دهِش.

فقال أبو بكر لعمر: قم فانظر فى شأنه. فإن له شأنا.

فقام إليه عمر فقال: إن ضيفا ضافه فزنى ببنته..

فضرب عمر صدره وقال: قبحك الله.. ألا سترت على ابنتك؟

فأمر بهما أبو بكر فضربا الحد. ثم زوج أحدهما الآخر. ثم أمر بهما أن يغربا حولا .

«٥»

اللعان

تمهيد:

ذات يوم.. كانت المفاجأة مذهلة. عندما سمع «العريس» أن عروسه تخونه.. وفى شهر العسل؟!

وبدل أن يفسد بالتهور خطته.. أوهم زوجته أنه مسافر إلى بلد بعيد..

ومع بزوغ الفجر.. عاد إلى البيت.. عاد.. ليرى بنفسه العشيق مختبئا تحت السرير.. وبحركة هستيرية.. حمله الزوج.. ثم رماه من نافذة الدور السادس.. فسقط على الأرض كتلة من اللحم والعظم!

وأمام هذه الواقعة الفاجعة.. يتساءل الناس عن مشروعية هذا التصرف من قبل الزوج.. أو هذا العروس الذى اعتراه ما يشبه الجنون.. إزاء مشهد لا يتحمله بشر؟

إن الزوج.. يمكن أن يسكت.. إذا رأى رجلا مع امرأة.. أية امرأة.. وبخاصة إذا لم يكتمل عدد الشهود.. أما مع امرأته.. فكيف يصبر..

وإذن فما هو الحل الإسلامى هنا؟

إنه اللعان الذى شرعه الحق تعالى حسما لهذا الموقف الصعب. وذلك قوله تعالى: ﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين﴾.

ـ أ ـ

أتى عُويمرُ رضى الله عنه الرسول ﷺ فقال:

يا رسول الله: رجل وجد مع امرأته رجلا.. أيقتله فتقتلونه.. أم كيف يصنع؟

فأنزل الله تعالى هذه الآية فقال ﷺ: «قد أنزل الله عز وجل القرآن فيك وفى صاحبتك» فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة [1].

وفى رواية: أن هلالَ بن أمية أتى رسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه فقال: يا رسول الله: إنى جئت أهلى عشاء. فوجدت رجلا مع أهلى: رأيت بعينى. وسمعت بأذنى. فكرِهَ رسول الله ﷺ ما أتاه به، وثقل عليه وقال له: [إما البينة.. وإما أن تحد].

وإننا لَنُحِسُّ بفداحة الخطب.. فى حسّ رجل عربى ومسلم فى نفس الوقت.. وإنه لخطب.. يُحَسُّ.. ولا يوصف! ونرى بعين الخيال هلالا رضى الله عنه ينتزع خطاه انتزاعا.. ثم يأخذ وجهته إلى الرائد الذى لا يكذب أهله.. حاملا فوق كتفيه رأسا مثقلا بِهَمٍّ كالجبال..

وهو موقف صاحبه «عُويمر» رضى الله عنه.. ومع أنه زوج.. وغالبا وفى مثل هذه الحالة ما يكون صادقا.. فليس من مصلحته ثبوتُ جريمةٍ تُلطخ سمعته هو ابتداء.

إلا أن الرسول ﷺ لا يترك العِرض تحت رحمة أحد.. ولو كان هو الزوجَ نفسه.. ثم يقولها كلماتٍ أقطعَ من السيف «إما البينة وإما الحد!»

ومع تقديره ﷺ لمشاعر الزوج المكلوم.. إلا أن القيادة الإلهية لا تكون أبدا

(١) رواه البخارى ومسلم.

على هوى القاعدة! وذلك قوله تعالى: ﴿لو يُطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم﴾.

والفرق هائل بين الرأى.. والعقيدة: فالرأى: يدخل فى دائرة معلوماتك.. أما العقيدة: فهى دم يسرى فى عروقك.. وأنت بحكم العقيدة مأمور باتباعه ﷺ.. وبالذات فى مثل هذه المنعطفات الخطيرة فى حياة الزوج..

أما هو ﷺ.. فلنْ يكون أبدا على هوانا.. يحقق أمانينا.. ويَرْبِتُ على أكتافنا.. ولو كان كذلك. لَهَلَكْنَا.. ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾.

وإذن.. فالأمر حازمٌ.. لا تراخى فيه.. وكأننا نتسمع الآن وجيبَ قلب الزوج يتلاحق.. وصرخةٌ مكتومة هناك فى أعماقه: يا ناس.. هذا تكليف بما لا يطاق: من أين لى بالشهود والجانى يرتعُ فى عرضى.. وأنا حيالَه مكتوفُ الأيدى... وربما قلنا له.. مع نفسه اللوامة فى أعماقه:

أولا: هذا حكم الله.. ولا معقب لحكمه سبحانه وتعالى..

وثانيا: نقول له: هون عليك.. وجفف دمعك الغالى.. وسل نفسك: هل الذى حدث جاء فجأة.. وبلا مقدمات؟ أين أنت الآن.. بل أين كنت قبل الآن أين متابعتُك.. رقابتك.. حسُّك البصيرُ بعواقب الأمور..

أين هذا الذى ينام بإحدى مقلتيه ويتقى بأخرى المنايا.. فهو يقظانُ نائم.. يقظان.. ليكونَ ذلك الألمعىَّ الذى يظن به الظن كأن قد رأى وقد سمعا..

أنت مَعَهَا شريكٌ فى المسؤولية.. وإهمالُك.. يَضَعُك معها فى قفص الاتهام.. من أجل نهاية كنت شريكا فى صنْعِها!!

ولا يغيبُ عن بَالِنَا موقفُ الصحابة المشفقين على صاحبهم.. أن يقام عليه الحد.. فتجتمع عليه مصيبتان: مصيبة البيت.. ومصيبة الجَلْد!

بينما المجرم الحقيقى مطلقُ السراح!! لقد أشفقوا من قَبْل على سيدهم سعد ابنِ عبادة لما تساءل: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ ثم عفا الله تعالى عنه.. ولكن فرحتهم لم تتم.. حتى جاء هلال.. بما لم يكن يخطر لهم على بال.

مع قسوة الموقف.. إلا أن هلالَ بن أمية رضى الله عنه.. الزوجَ المكلوم. المجروح.. لم يفقد الأمل لحظة فى نصر من الله قريب يُبرئُ ساحته.. وفعلا نزلت الآية الكريمة وما بعدها فحسمت القضية وكانت شريعةُ الملاعنة بين الزوجين: فماذا فى الآية الكريمة من دروس؟؟

من هذه الدروس:

واقعية الإسلام التى تؤكد ما للغريزة الجنسية من ضَرَاوةٍ.. قد تحمل على الرذيلة.. الرذيلة التى تتسلل إلى المجتمع الطهور متحدية كأنما تقول: نحن هنا..

وإذن فخذوا حذركم أيها المؤمنون.. والأمر على ما قيل:

[إن الثقة العمياء بالطبيعة البشرية بضعفها ونوازعها ليست من الحكمة فى كل الأحيان.

والمطلوب هو: الثقة المبصرة.. التى لا تبادرُ الآخرين بالشك وسوء الظن ولا تَغفُلُ فى نفس الوقت عن حقائق الواقع.. وتبادرُ بتلافى الخطر قبل أن يستفحل].

وليأخذ الحذر الشديد وضعه منذ البداية.. فرارا من صعوبة النهاية.. وإلا.. فإن التساهل واصل بالرواية إلى خاتمتها الأليمة فعلا.. على ما قيل:

نظرة فابتسامة فسلام.. فكلام فموعد.. فلقاء.. فخراب بيوت!!

ألم يأمر الإسلام بالتخالف حتى بين الإخوة فى النوم حذرا من مغبة ذلك.. واعترافاً بما للغريزة من سطوةٍ لا تُدفع..

إن فى ذلك لعبرة لذلك الفلاح الساذج الذى حَذَّره إخوانه من جرأة زوجته والتى سوف تصل بها.. وبه.. يوما إلى حافة الهاوية.

وما كان جوابه إلا أن قال: امرأتى.. رجل.. ولا أخشى عليها لو نامت بين الرجال.. ولقد قلتُ عندئذ:

أولا: ادعاؤك أن زوجتك رجل.. غير صحيح.. فأنت أولُ الشاهدين بأنها أنثى.. أنثى لغة.. واصطلاحا..

وثانيا: هذا الزعم بأنك لا تخاف عليها حين ترقد بين الرجال.. ادّعاء باطل.. يُفنده ذلك الصُّراخ.. صراخُ الغيرة يهُزك من أعماقك.. كزوج.. وإذا لم يكن ذلك الصوت.. فلا زوج.. فلا رجل هناك!

ثم.. نُصدِّقُك أنت فى دعواك عِفَّتَها وهى بين الذئاب.. أم نصدق الشرع الحكيم المؤكد أنه «**ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما**».

ألا إنه الإفراط المرفوض فى الثقة بطبيعة تأبى إلا أن تشتعل.. كلَّما توفرت الأسباب..

إنه نوع من التجاهل.. لا الجهل.. التغافل.. لا الغفلة.. يتيح للشيطان أن يمارس وظيفته فى الإفساد.. ومن حيث لا يشعر الغالون.. الضالون.. ومن هؤلاء الغافلين ذلك الذى ينادى بالاختلاط.. كَسمةٍ من سمات الحضارة قائلا:

دعوا الشباب يستمتع بالحياة.. فلن يأكل الناس بعضهُم بعضا؟!

ونقول: ومن قال إننا نخشى على الفتاة أن يأكلها الفتى..

لو كان الوحش هنا ذئبا.. لخفنا عليها من الأكل حقا..

أما فى قضيتنا هذه.. فنحن لا نخاف من الأكل.. ولكننا نخاف مما هو أكبر منه وأفدح ثمنا.. يوم أن تتم الجريمة.. فيذهب الشرف.. وحين يذهب الشرف قال له الأمن: خذنى معك!!

ثم.. تبدأ الأمة تَجْنِى.. ما زَرَعتْ يداها: أطفالا ضائعين.. هائمين.. حيارى.. ثمرات مرة لهذا التفكك الأسرى بعد طلاق الأم.. وانهيار المعبد على رءوس من فيه!!

وإذا بك تمضى.. والأسَى يعتصر قلبك.. من هول ما ترى: إنهم أطفال.. مستقبلُ الأمة الواعد.. ماذا جرى لهم: يحتضنون الأرصفة.. بينما أبوهم - مرغما - يحتضن عروسه الجديدة بعد طلاق أمهم.. يتسربلون بظلام الليل.. بينما الوالد هناك فى وهج المصباح.. وحتى الصباح.. وما أكل الأطفال اليوم.. وإنم أُكلُوا يوم أُكِل الثور الأبيض.. يوم أن غفلنا.. فكان ما كان.. مما لست أذكره!!

ـ جـ ـ

يقولون: لو عرَف الحق أحد.. لما عرَف كيف ينطق بكلمة تُسىء..

وتقول: ولو عرَف قيمةَ العرض أحدٌ لما سولَّت له نفسه العدوان عليه..

ولكنه الجهل: جهلُ الزوج المقصِّر فى حياطته بسياج من كرامته.. وجهلُ الخائن الذى استغل براءة الأبرياء.. ففعل فعلته..

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله	فأجسامهم قبل القبور قبور
وإنَّ امرءًا لم يُحيى بالعلم قلبه	فليس له قبل النشور نشور

ولنترك هلالا رضى الله عنه فى دوامته..

يَقُول مع الشاعر..

رأيت الناس خدًّاعا	إلى جانب خدَّاع
ويمشُون مع الذئب	ويبكون مع الراعى

لنتركه ثم لِنُصغ إلى الحكمة.. فى حكم الله: والحكم كما تصرح الآيات الكريمة يتلخص فى:

أن يشهد الزوج أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فيما يدعيه.. والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين... والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

ولكن ما هى أبعاد هذا اللعن؟ إنها تتلخص فى:

١ ـ إقامة الحد عليه.

٢ ـ استيحاش المؤمنين منه.

٣ ـ سقوطه عن رتبة العدالة.

٤ ـ الحرمان من الذكر الحسن على ألسنة المؤمنين..

ومع هذا فالغضب أشد وطأة من اللعن.. وكان الغضب من نصيبها لأنها كما يقول الرازى: [إنما خُصَّت بأن تُخَمَّسَ بغضبِ الله.. تغليظا عليها: لأنها هى

أصل الفجور ومَنْبَعه: بخيلائها وإطماعها. ولذلك كانت مقدَّمَةً فى آية الجلد].

وقد لاحظتُ أن الآيات الكريمة لا تذكر التهمة نصًا.. فلم تقل والذين يرمون أزواجهم بالزنا..

وأيضًا: فالضمائر كلها أو جلُّها عائدةٌ على الرجل هكذا: ﴿إنه لمن الصادقين﴾ ﴿لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين﴾ ﴿[إنه لمن الكاذبين] إن كان من الصدقين﴾.

وربما جاز لنا أن نقول: إن روح الاسلام جانحةٌ إلى سَتْر المرأة.. والإبقاء على الأذهان خاليةً من تصوُّر انحرافها.. ولْتَبْقَ هناك بعيدا.. عن المستنقع الآسن.. لماذا؟

أولا: لنتعلم نحن خُلُقَ الستر وتركَ خَطٍّ الرجعة مفتوحا بين يدى التائبات العائدات إلينا طاهرات.

وثانيا: فيما يتعلق بالمرأة ذاتها: فإن ذلك يُحمِّلها مسؤولية حماية عرضها.. قبل أن نحمل غيرها كفله من هذه المسؤولية. وأحيانا: نكلف اللص بحراسة الملابس.. وعندئذ قد ينسَى أنه لص ولن يسرق شيئا!!

ونحن مطالبون بأن نكون عَبِيد الستار سبحانه وتعالى.. والذى ينشر على العصاة من رحمته ظلالا نديه.. ربما عادت بهم إلينا تائبين..

وعلى هذا الأساس جَرَتْ تشريعاتُه: فَوَلَدُ الزنا.. ليس مسؤولا عن جريمة لم يكن طرفا فيها..

فمن رَجَمَه.. رُجِم.. وأمه أيضا من رماها بعد الحد.. رُمِى.. لِتَظَلَّ البيئة طيبةً طاهرة.. ولقد بلغ من رحابة صدر الإسلام أنه لم يجعل من هذا الماضى الكئيب مانعا من استئناف الحياة من جديد..

قال عكرمة رضى الله عنه عن هذا الوليد فى قصتنا: لقد رأيته بعد ذلك أمير مصر من الأمصار.. ولا يدرى من أبوه؟!!

أما بعد.. ففى دوامة غزوة تبوك.: وعندما أمر رسول الله ﷺ أن يعتزل

الثلاثة الذين خُلِّفوا نساءهم. . وجاءت امرأة هلال تستأذنه ﷺ في خدمته لأنه شيخ. . ضائع. . فقبل قائلا: ولكن لا يقربْك؟ قالت إنه والله ما به حركة إلى شيء؟!!

ونطوى هذه الصفحة محتفظين للصحابة الأجلاء، بكل الحب والتقدير. . ولكن. . فقط نأخذ العبرة. . ليعتبر بها شيوخ يزعمون أنهم شباب في سن الستين. . ثم يبحثون عن فتيات. . عن زوجات. . تحت العشرين. . إن إفرازات هذه الفورة الطارئة هي: الانحراف. .

الانحراف الذى يتولى كبره شيوخ يدخلون بالستين معترك الموت. . إن الانحراف لم يبدأ اليوم وإنما بدأ بسوء اختيارهم ومع ذلك يحاولون. . بل ويجادلون. . يجادلون فى آيات الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. !

﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم. يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾.

كان عقاب الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا. . كان عقابهم من ناحية الكيف: أليما. . ثم هو مستمر أبدا: **﴿فى الدنيا والآخرة﴾**.

فإذا بَرَزَتْ إرادة الشرّ هذه على السطح. . فكانت إيذاء باللسان. . وبالأيدى. . ثم صُوِّبَتْ السهام مع ذلك. . وبالذات إلى من استجمعن عناصر الخير من المحصنات. . الغافلات. . المؤمنات. . إذا صعّد الأشرار المعركة. . فنقلوها من القلب. . إلى القالب. . فلابد أن يكون العذاب أشد وأنكى. . وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة: **﴿ولهم عذاب عظيم﴾**.

وإذا خنس الخبثاء الماكرون خلف الأستار. . ثم رمَوْا من حيث لا يراهم أحد. . فقد كان من سخرية الأقدار أن يجعل الله تعالى جوارحهم شاهدة عليهم. . تنكيلا. . وتذليلا. . على أن مَنْ تحدى شرع الله. . فضحه الله تعالى ولو فى عقر داره!!

أجل. . لقد قضت شرعة العدل أن يكون الجزاء هنا رادعا. . لأنه الرد

العملى على من يَخُصّون بالقذف رموز المجتمع الإيمانى الطاهر من المحصنات.. العفيفات.. البريئات.. واللائى أحطن أنفسهن بسياج من الحياء والطهر.. ثم إذا بالسهام المسمومة تناوِشُهُن من بعيد..

ثم إنهن غافلات. لا يملِكْنَ الدفاع عن أنفسهن. إلى جانب ما يتمتعن به من سلامة الصدور.. ونقاء القلوب.. تلك الثروة التى يريد العابثون تبديدها.. ليظل الشر غالبا.. وهم فى حمأته يخوضون..

يقول الزمخشرى:

[الغافلات السليمات الصدور. النقيّاتُ القلوب. اللاتى ليس فيهن دهاءٌ ولا مكر؛ لأنهن لم يُجرِّبن الأمور. ولم يَزِنَّ الأحوال. فلا يَفْطِنَّ لما يَفْطِنُ له المجربات العرّافات.

قال وكذلك البُله من الرجال فى قوله ﷺ: «أكثر أهل الجنة البُلْهُ». وهو الغافل عن الشر. المطبوعُ على المحبة.

وقيل: هم الذين غَلَبَتْ عليهم سلامة الصدور وحُسْنُ الظن بالناس. لأنهم أغفلوا أمْرَ دنياهم. فجهلوا حَذْق التصرف فيها. وأقبلوا على آخرتهم فَشَغَلُوا نفوسهم بها فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة.

وأما الأبْلَه الذى لا عقلَ له. فغيرُ مرادٍ فى الحديث. لأن المقامَ مقامُ مدح].

ويعنى ذلك أن الخطائين من العيّابين.. يريدون تدمير رموز الفضيلة فى المجتمع.. ليكون الجميع فى الرذيلة سواء.. وعندئذ يكون الفساد ويتقدم المفسدون ليقودوا الركب إلى الهاوية ثم تكون النتيجة على ما قال الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وتعجّب كيف تنقلب المقاييس فى أنفس العابثين. ليكون المانع من القذف مقتضيا له!! .. وهو درس للمتخصصين اليوم فى الهجوم على رموز الإسلام من كبار الشيوخ فى كل بلاد الدنيا .

ودرس أيضا للصالحين الجالسين على كراسى المتفرجين صامتين.. لا

يتكلمون.. كأنما القضية لا تعنيهم.. مع أنها تسحب الزمام من أيديهم! والبساط من تحت أرجلهم.

إن رمى العلماء.. المجربين.. المجتَهدينْ.. كَرَمْيِ المحصَنات الغافلات المؤمنات.. حركةٌ طائشة يراد بها تجريدُ الأمة من مقوِّمات بقائها.. واستمرارها..

ونبادر فنقرر: أنه ليس هناك من هو فوق النقد..

فالعالم بَشَرٌ يخطئ ويصيب.. فإذا استمر مصيبا فبها.. وإذا أخطأ يوما.. فالأمر على ما يقول الشاعر:

وإذا الصديق أتى بذنب واحد   جاءت محاسنه بألف شفيع

ويبقى أن يتحمل العلماء قدرهم صبرا جميلا.. ومُضِيّا بالأمة على طريق الرشاد.

ومن دروس الشافعى هنا:

[قال يوما للربيع بن سليمان: يا ربيع: رضا الناس غاية لا تدرك.. فعليك بما يُصلحك فالْزَمْه فإنك لا سبيلَ لك إلى رِضَاهم.

واعلم: أن من تعلم القرآن.. جلّ فى عيون الناس.. ومن تعلم الحديث.. قَوِيتْ حجته.. ومن تعلم النحو.. هابه الناس ومن تعلم العربية رق طبعه ومن تعلم الحساب.. جل رأيه .. ومن تعلم الفقه نبل قدره]

....

من القمامة

إلى القمة!

لما تقررت الملاعنة.. ثم وصلت إلى الخامسة.. حذرها ﷺ.. كما حذر زوجها.. قبل أن يصير التفريق أمرا واقعاً. وقبل أن تشيع الفضيحة وتذيع..

وفى هذا من الحفاظ على كرامة المرأة وسمعة الأسرة ما فيه... وهو شهادة تؤكد حرص الإسلام على بقاء المجتمع نظيفا شريفا.

من حكمة الإسلام

ولأن اللعان أمر عظيم.. فقد ضيق الإسلام عليه الخناق.. حتى يتوارى الشبح المخيف..

وقد اشترط لذلك أموراً:

١ ـ لابد أن يكون الملاعن واقفا.. فلعل تصوره نفسه واقفا بين القوم.. أن يردعه.

٢ ـ ولابد أن يكون بين جماعة يسمعونه ويرونه.. أربعة فأكثر.

٣ ـ على أن تكون الشهادة فى وقت يقبل الله فيه الدعاء: بعد العصر مثلا.

٤ ـ وفى مكان شريف هو: المسجد.

٥ ـ أن يكون اللعان باللغة العربية.. لأن معنى الزجر يتضح بها.

٦ ـ أن يلاعن بصوت مسموع. ولا يقبل منه أن يخافت به. فلعل الجهر أن يصرفه ابتداء.

٧ ـ لا ملاعنة بين زوجين لم يبلغا الحلم.

٨ ـ يقول له الحاكم ـ كما أشرنا آنفا ـ وهو يضع يده على فمه: اتق الله فإنها الموجبه أى اللعنة.

٩ ـ إذا ثبت كذبه. يقام عليه الحد إعلانا ببراءة المرأة. بل بطهارتها.. ويالها من جلدات قد تؤلم الزوج.. لكنها فى نفس الوقت إعلام بشرفه هو أولا!

بين اللعن.. والغضب

ربما كان الغضب أشد من اللعن.. ولذلك جعل فى جانب المرأة المتهمة بالزنا:

لأنها الفاعلة.. وإذا ثبتت الجريمة بحقها.. فلتتحمل وزرها غضبا من الجبار سبحانه.. لما يترتب عليها من إفساد الحياة الزوجية.. واختلاط الأنساب.. وشيوع الفاحشة فى الذين آمنوا.

أما كذب الزوج فيعنى براءتها من التهمة الشائنة.. وما يترتب عليه من تلويث سمعتها زورا وبهتانا.. فليطرد من ساحة لم يحافظ على قداستها.

١ ـ إن الاتهام باللعن حكم على الله تعالى بأنه أبعد الملعون من ساحة رحمته. وهذا غيب لا يعلمه إلا الله تعالى.. وبالتالى فلا يحق لمسلم أن يلعن مسلما.

٢ ـ يجوز لعن الكفار عموما.. لا فرد بعينه. فلعله أن يسلم يوما.

٣ ـ يجوز لعن شخص ثبت لعنه مثل: فرعون وأبى جهل.. لعنهما الله!

٤ ـ لا ينبغى ـ فى غمرة الحماس ـ أن نوزع اللعن على الناس بلا حساب.. ولمجرد ما يبدو منهم من خطأ..

ولنذكر قصة الرجل الذى أقيم عليه حد الشرب فلعنه مسلم. فنهاه ﷺ قائلا:

«لا تلعنوه.. فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله».

الفصل الثانى

حديث الإفك

غزوة بنى المصطلق

تمهيد:

بعد غزوة الأحزاب.. ظهرت قوة المسلمين بهذه الانتصارات المتعاقبة.. على قريش.. ثم على التحالف الباغى بينها وبين القبائل.. إلى جانب ما كان من إجلاء يهود بنى النضير.

وتأكد لأعداء الإسلام أن السيف لن يحسم المعركة مع المسلمين.. فغيروا خطتهم ولجأوا إلى الحرب النفسية سبيلا إلى النيل من الإسلام والمسلمين. وذلك:

أ ـ بالتفرقة العنصرية. وإثارة النعرة القبلية.

ب ـ الإساءة إلى مقام الرسول ﷺ.

جـ ـ زعزعة الأسرة المسلمة. التى هى ركيزة القوة.

وكانت غزوة بنى المصطلق مسرحا لهذه الحرب النفسية الماكرة.

نظرة عامة على الغزوة

لم تكن غزوة بنى المصطلق ساخنة المواجهة كغيرها من الغزوات السابقة. ولكنها كانت معركة من لون آخر.. كشفت للمسلمين أسلحة أخرى فى حوزة أعدائهم. لا تقل خطرا عن السلاح الأبيض إن لم تكن أشد منه خطرا.

إثارة العصبية القبلية:

بعد هزيمة بنى المصطلق.. حدث أن أجيرا لعمر بن الخطاب من بنى غفار. اقتتل مع حليف للخزرج من جهينة... فصرخ الجهنى: يا معشر الأنصار.. وصرخ الأجير يا معشر المهاجرين.

وبدأت المؤامرة عندما غضب عبد الله بن أبى بن سلول فقال: أو قد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا. والله ليس الأمر إلا كما قيل «سمن كلبك

يأكلك»... أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.. ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم. وقاسمتموهم أموالكم. أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم[1].

وهكذا تحرك الحقد القديم في قلب ابن سلول.. وبلغ به الغرور حد الاستعلاء على المؤمنين.. بل على شخص الرسول ﷺ. ثم بلغ به الحسد أن أشار على قومه بقطع المعونة الاقتصادية عن المسلمين وفرض العزلة عليهم حتى ينفضوا.. محركا بذلك كله حمية الجاهلية في صدور أتباعه.

موقف الرسول ﷺ:

أثرت كلمة ابن سلول في القوم الذين أسرعوا بسيوفهم. وكادوا يقتتلون.. وكل فريق يدعو بدعوى الجاهلية.

وأسرع ﷺ فصاح في الناس: **«دعوا هذه الكلمة.. إنها منتنه»**[2].

واستجاب الناس لرسول الله ﷺ.. لكن تمادى ابن سلول آثار حفيظة المسلمين وعلى رأسهم عمر رضي الله عنه والذي اقترح عليه ﷺ أن يقتله جزاء مقالته الآنفة وقال: يا رسول الله مر عباد بن بشر فليقتله وليأتك برأسه.. فرد عليه ﷺ قائلا: **«لا.. فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتلُ أصحابه.. ولكن أذن بالرحيل»**.

معنى الإذن بالرحيل:

مشى الرسول بالناس يومهم ذلك. حتى أمسى. وليلتهم حتى أصبح. وصدر يومهم ذلك. حتى آذتهم الشمس.. ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما.

لقد كانت الشقة بعيدة.. ووقدة الحر تلسع الوجوه.. ومن ثم فلم يكن هو الوقت المعتاد للسفر.. لكنه ﷺ أراد إسكاتهم عن الخوض فيما لا يعبد.. [illegible]

---

(١) راجع السيرة النبوية للندوى ٣٠٢ وما بعدها.

(٢) رواه البخاري.

بهم من كيد الشيطان.

وكانت لفتة تربوية نبوية شغل بها النفوس بما يفيد.. ليصرفها عما لا يفيد.. لأن النفس لابد مشغولة بأمر ما... فإذا لم نشغلها بالحق شغلتنا بالباطل. وذلك قوله تعالى: ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾.

وما أكثر ما نرى اليوم فى صفوف شبابنا.. وكيف ساعدهم الفراغ والزهد فى العمل على القيل والقال.. ولو شغلناهم.. لكفيناهم.

الآيات تحسم القضية:

ونزل قوله تعالى:

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ. اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ. وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ. سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ. هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ. يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

عندما نحقق باللين ما لا نحقق بالشدة:

آتت الحكمة النبوية أكلها حين تكفل عبد الله بن عبد الله بن سلول ـ وكان مسلما ـ بعقاب والده المنافق:

كان عبد الله هذا من خيرة صحابة رسول الله... فلما سمع بما حدث من

---

(١) المنافقون: ١ ـ ٨.

أبيه تبرأ منه. ثم وقف له على باب المدينة. واستل سيفه.

فلما جاء أبوه قال له: والله لاتجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ. فإنه العزيز وأنت الذليل. فلما جاء النبى ﷺ. أذن له فخلى سبيله.

وكان ابنه قد قال: يا رسول الله: إن أردت قتله فمرنى بذلك فأنا والله أحمل إليك رأسه[1].

وفى تعليل ذلك يقول الابن: فوالله ما علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى. وإنى أخشى أن تأمر غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله. فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار.

فقال ﷺ: «دعه. فلعمري لنحسن صحبته ما دام بين أظهرنا».

ونلمح عاطفة البنوة التى لا تنكر بحال إلى من كان سببا في وجودها.. وهو الأب.. ولا تقطع الصلة نهائيا..

فعلى رغم أن عبد الله الابن يحتفظ برلائه لدينه الذى رجح على أبيه.. إلا أن وشيجة القربى ما زالت تعمل فى قلبه.. رها هو ذا يخشى إذا قتل أبوه بيد غيره أن تدفعه تلك الصلة إلى العدوان.. ثم الخسران.. وإذا قرر الإسلام أن يكون ولاية المسلم لدينه أولا.. فإنه يحتفظ للوالدين بحقهما في البر الذى يبقى موصولا.. وإن بقيا على الكفر.

من ناحية أخرى فقد كان موقف الابن أقوى رد على والد أراد أن يقطع اليد التى امتدت إليه بالإحسان.. ولا يهز الشجرة إلا فرع منها. وهكذا تفعل الحكمة الهادية ما لا تفعله الجيوش الجرارة..

وقد ظهر ذلك فيما روى أن النبى ﷺ قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد أن انكسرت شوكة ابن سلول وضاعت هيبته بين قومه: «كيف ترى الآن يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته».

---

(١) رواه البخارى وابن هشام.

فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمرى[1].

تأملات فى الآيات الكريمة:

تركز الآيات الكريمة على كشف خبيئة الطابور الخامس من المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون.. تحذيرا للمسلمين من مكرهم وردعا لهم عن الوقوع فى حبالهم.

إنهم يضمرون كفرا اختلط بدمائهم فطبعوا عليه.. فلا رجاء فيهم.. وظلمة القلب بهذا اللون الموغل فى النكران حائل بين العقل وبين الفهم والاستنباط..

ومن ثم فقد احتاطوا لأنفسهم حتى لا ينكشفوا.. فاتخذوا من الأيمان المؤكدة.. ومن حسن المظهر.. ومعسول الكلام ستارا يحميهم من افتضاح أمرهم..

ومفروض على أمة الإسلام ألا تنخدع بالأيمان الكاذبة ولا بحسن الشارة الخادع.. فإن الأمر على ما يقول سبحانه:

﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسنده﴾.

سر التشبيه بالخشب المسندة:

يتساءل الرازى قائلا: (لم شبههم بالخشب المسندة لا بغيرها من الأشياء المتفع بها؟

ثم أجاب: نقول: لاشتمال هذا التشبيه على فوائد كثيرة لا توجد فى الغير:

الأولى: قال فى الكشاف: شبهوا فى استنادهم وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير بالخشب المسندة إلى الحائط لأن الخشب إذا انتفع به كان فى سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع.

ومادام متروكا فارغا غير منتفع به أسند إلى الحائط. فشبهوا به فى عدم الانتفاع.

---

(١) راجع كتب السيرة.

الثانية: الخشب المسندة كانت فى الأصل غصنا طريا يصلح لأن يكون من الأشياء المنتفع بها. ثم تصير غليظة يابسة. والكافر والمنافق كذلك. . . كان فى الأصل صالحا لكذا وكذا. ثم يخرج عن تلك الصلاحية.

الثالثة: الكفرة من جنس الإنس حطب. كما قال تعالى: ﴿حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ والخشب المسندة حطب أيضا.

الرابعة: أن الخشب المسندة إلى الحائط أحد طرفيها إلى جهة والآخر إلى جهة أخرى. والمنافقون كذلك. . لأن المنافق أحد طرفيه وهو الباطن إلى جهة أهل الكفر. والطرف الآخر وهو الظاهر إلى جهة أهل الإسلام).

إذن فلا قيمة لهؤلاء المنافقين. . فلا يغررك قولهم. . وأعلم ـ والأمة معك ـ أن هذه الأجسام التى تزحم الأفق لو وضعت على محك الاختبار فى ساحة المعركة فهم الجبناء الفارون عند كل صيحة. . ولو لم تكن الصيحة عليهم.

وهم بهذه المواصفات لا يصلحون لعمل. . فلا أمل فى أن يكونوا معك. . فمحاولة الاستغفار لهم غير مجدية مهما استغفرت لهم حرصاً منك على هدايتهم.

شهادة الواقع :

والواقع شاهد بهذه الحقيقة مؤكد لها: فهم الذين اقترحوا قطع المعونة الاقتصادية عنكم حتى تجوعوا. .

وهم الذين تبجحوا فى شخص رئيسهم ابن سلول الذى زعم أنه الأعز وحده. . مع أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

وهكذا يربى الله تعالى أمته بالأحداث الحية المباشرة. . ثم يلقنهم دروسا عن أثر الحكمة فى صنع المواقف العظيمة.

هذه الحكمة التى تجلت فى موقف الابن من أبيه. . الذى تطوع بقتله فى بيئة كانت العلاقة الأسرية فيها قوية راسخة. . ولكن الإيمان. . جعل البنوة للإيمان. . لا للسيف.

خاتمـــة

يقول صاحب الظلال:

(وننظر مرة إلى الأحداث. ومرة إلى الرجال. ومرة إلى النص القرآنى.. فنجدنا مع السيرة. ومع المنهج التربوى الإلهى. ومع قدر الله العجيب فى تصريف الأمور:

فهذا هو الصف المسلم يندس فيه المنافقون.. ويعيشون فيه ـ فى حياة الرسول ﷺ ـ قرابة عشر سنوات.

والرسول ﷺ لا يخرجهم من الصف. ولا يعرفهم الله له بأسمائهم وأعيانهم إلا قبيل وفاته.

وإن كان يعرفهم فى لحن القول. بالالتواء والمداورة. ويعرفهم بسيماهم وما يبدو فيها من آثار الانفعالات والانطباعات... ذلك كى لا يكل الله تعالى قلوب الناس إلى الناس فالقلوب له وحده. وهو الذى يعلم ما فيها ويحاسب عليه.

فأما الناس فلهم ظاهر الأمر. كى لا يأخذوا الناس بالظنة. وكى لا يقضوا فى أمورهم بالفراسة. وحتى حينما عرف الله نبيه ﷺ بالنفر الذين ظلوا على نفاقهم إلى أواخر حياته. فإنه لم يطردهم من الجماعة. وهم يظهرون الإسلام. ويؤدون فرائضه.

إنما عرفهم وعرف بهم واحدا فقط من رجاله هو حذيفة بن اليمان رضى الله عنه. ولم يشع ذلك بين المسلمين.

حتى أن عمر رضى الله عنه كان يأتى حذيفة ليطمئن منه على نفسه أن الرسول ﷺ لم يسمه له من المنافقين؟!!

وكان حذيفة يقول له: يا عمر: لست منهم، ولا يزيد!

وكان رسول الله ﷺ قد أمر ألا يصلى على أحد منهم مات أبدا... فكان أصحابه يعرفون عندما يرون الرسول لا يصلى على ميت... فلما قبض ﷺ كان حذيفة لا يصلى على من عرف أنه منهم.

وكان عمر لا ينهض للصلاة على ميت حتى ينظر. فإن رأى حذيفة هناك علم أنه ليس من المجموعة. وإلا لم يصل هو الآخر ولم يقل شيئا.

وهكذا كانت تجرى الأحداث - كما يرسمها القدر - لحكمتها ولغايتها. للتربية والعبرة وبناء الأخلاق والنظم الآداب)[1].

* * *

---

(١) الظلال: سورة المنافقون.

حديث الإفك

(حديث الإفك. هو حديث القصة التى أشاعها بعض المنافقين عن السيدة عائشة رضى الله عنها. وعلى رأسهم عبد الله بن أبى بن سلول زعيم المدينة الموتور. الذى لم ينس قط حقده على النبى ﷺ ولا على الإسلام والمسلمين. وحديث الإفك هذا هو الحديث الذى اجتمعت له كل بواعث الفضول والوشاية التى تغرى ألسنة الناس بالخوض فى أمثال هذه الأحاديث. ولو كانت من نسج الخيال واختراع القصاص.

فمن دأب الناس قديما أن يتطلعوا إلى الأسرار. ويكثروا القيل والقال فى الوشايات.

وهم أشد تطلعا إليها وكلفا بالقيل والقال فيها إذا اشتملت على وشاية من وشايات الرجال والنساء.

ولولا كلفهم بهذا لما اخترعت لهم القصص والروايات التى يقرأون فيها أخبار رجل لا وجود له. وامرأة لا وجود لها. وهم يعلمون أنهما من نسج الخيال.

ولكنهم أشد من ذلك تطلعا. وكلفا بالقيل والقال فيها إذا هى تعلقت بعظماء الرجال. وعظماء النساء. ثم يبلغ التطلع أشده. والكلف حده إذا كان لأحد من الناس غرض فى ترويج الإشاعة واللغط بها. والاسترسال فى ذيولها وحواشيها.

فإذا كان هذا الغرض على اتصال بالعصبيات القومية. والعقائد العامة التى تصطرع حولها الأهواء. وتضطرم فيها الضغائن. ويطول فيها جدل المصدقين والمكذبين. ونزاع المبغضين والمحبين.. فقد اجتمعت للقصة كل بواعث الفضول والوشاية... وأحاطت بها كل مغريات اللغط والتشهير. فهذا الذى حدث بحذافيره فى حديث الإفك الذى تولى كبره زعيم الخزرج فى المدينة عبد الله بن أبى بن سلول.

فهو حديث وشاية على رجل وامرأة. وهما أعظم الرجال وأعظم النساء.

وفى اللغط به غرض قوى لأكبر زعماء الخزرج فى زمانه. وغرض قوى لكل

من يبغى المساس بالنبى ﷺ . وبالإسلام كله من طريق المساس بنبى الإسلام.

ولولا ذلك لما سمع بحديث الإفك. ولا استحق أن يصغى إليه. لأنه أوهى وأسخف من أن يطول فيه تصحيح وتفنيد.

وكأى من رئيس فى قومه وتر كما وتر ابن سلول. واشتمل قلبه على البغض كما اشتمل قلب ابن سلول على بغض النبى. وأحب أن يهدم دعوة من الدعوات كما أحب ابن سلول أن يهدم دعوة الإسلام.. لكنه مع كل هذا يتورع عن رجم المحصنات بالباطل. ويمسك لسانه على الخوض فى وشايات الدنس... لأنها لا تجمل بمروءة الكرام)[1].

وإذا تيسر للعقلاء اكتشاف الحقيقة فى ضباب الشك.. فإن جماهير غفيرة ربما استهوتهم الأسرار فخاضوا فيما لا يعلمون.. وهذا ما يفرض على الباحث تجلية الحق والأخذ بيد الحائرين إلى مرفأ الأمان فى قضية تتصل بالرسول ﷺ.. فما الذى حدث؟.

خلاصة القصة؟ ... أن الرسول ﷺ خرج بعائشة رضى الله عنها فى غزوة بنى المصطلق.

ولما رجع بعد انتصاره نزل منزلا طلبا للراحة. ثم أذن بالرحيل. وتصادف أن عائشة رضى الله عنها خرجت لبعض حاجاتها. وفى عنقها عقد لها. فلما عادت إلى الرحل تحسست عقدها فلم تجده. لأنه انفرط منها من حيث لا تشعر... فلما عادت لتبحث عنه تحرك القوم فى نفس اللحظة ودون أن تحس الجماعة الموكولون بحملها أنها ليست فى الهودج لخفة لحمها... وعادت رضى الله عنها إلى العسكر فلم تجد أحدا... فتلففت بثوبها. واضطجعت فى مكانها.

فى هذه اللحظة مر صفوان بن المعطل والذى كان يتخلف عن المعسكر عسى أن يجد شيئا متروكا يحمله إلى صاحبه.. فوجد أم المؤمنين.. فاسترجع.. ثم قرب إليها البعير فركبت وعاد بها إلى المدينة. فأدركت الركب. وانتهت القصة

(١) العقاد. الصديقة: ٨٥ ـ ٨٧.

عادية لأن الأمر كما أشار الندوى:

[كان هذا مما ألفوه فى حياة البادية. وسير القوافل. وكان حفظ الذمار والتعفف عن مثل هذه الخسائس.. من الأعراف العربية التى كانوا يحافظون عليها فى الجاهلية والإسلام. فيقول الشاعر العربى:

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى   حتى يوارى جارتى مأواها

حديث الإفك :

هذا هو الحدث.. فما هو حديث الإفك؟ انتهزها عبد الله بن أبى بن سلول فرصة للكيد للإسلام فى شخص الرسول ﷺ.. فأطلق شائعاته حول هذا الموقف وتلقتها ألسنة مغرضة أو غافلة فطارت بها كل مطار.

ردرد الفعل :

من هو صفوان بن المعطل:

١ ـ صحابى جليل شهد بدرا.. وقبل ذلك فهو عربى شهم ذو مروءة.

وإذا حافظ عثمان بن أبى طلحة ـ المشرك حينئذ ـ على أم سلمة وهو يعود بها إلى زوجها فى المدينة عن طريق صحراء تصفر فيها الرياح.. أفلا يكون صفوان الصحابى الجليل أشد حفاظا؟

٢ ـ كان صفوان بن المعطل على ساقة الجيش. يتخلف عنه ليلتقط ما يسقط من المتاع.. وهذا سر تأخيره.

٣ ـ وربما كان النبى ﷺ يعهد إليه فى ذلك. لأنه كان ثقيل النوم. لا يستيقظ حتى يأخذ الجيش فى المسير.

وقد شكته امرأته إلى النبى ﷺ لأنه ينام ولا يصلى الصبح قبل طلوع الشمس. فكان عليه السلام يعلم ذلك منه ويقول له: «إذا استيقظت فصل»[1].

وتلك هى خصيصته التى رشحته لهذه المهمة بالذات.

---

(١) الصديقة. العقاد.

٤ ـ عرف صفوان أنه كان «حصورا» لا أرب له فى النساء. وسمع وهو يقسم بعد حديث الإفك أنه ما كشف عن كتف امرأة قط!

٥ ـ يتوج ذلك كله شهادة النبى ﷺ لصفوان: «والله ما علمت على أهلى إلا خيرا. ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا. وما كان يدخل على أهلى الا معى»[1].

فالرسول وهو الصادق المصدوق يقسم بالله العظيم مؤكدا طهارة أهله.

ثم يفند الشائعة بنسبتها إلى رجل أيضا ما علم عنه إلا خيرا..

وإذا وجد المنافقون مندوحة من دخول صفوان بيت النبى أحيانا.. فإنه ﷺ لا ينكر الواقعة. ولكنه يذكر أنه لم يكن يدخل فى غياب رب الأسرة وإنما كان يدخل معه.. فلا شبهة حينئذ من قريب أو من بعيد.

٦ ـ كان على المسلمين خاصة أن يذكروا خصائص عائشة رضى الله عنها. والتى بوأتها فى الطهارة سماء ما طاولتها سماء.. حتى لا يرف بخيال هاجس سوء حولها .

تحدثت عائشة رضى الله عنها قالت ـ بعد أن برأها الله تعالى:

أعطيت تسعا ما أعطيتهن امرأة: لقد نزل جبريل بصورتى فى راحته حين أمر رسول الله ﷺ أن يتزوجنى... ولقد تزوجنى بكرا. ما تزوج بكرا غيرى... ولقد توفى رسول الله ﷺ وإن رأسه لفى حجرى... ولقد قبر فى بيتى... ولقد حفت الملائكة بيتى. وان كان الوحى لينزل وأنا معه فى لحافه. فما يبيننى عن جيده... وإنى لابنة خليفته وصديقه... ولقد نزل عذرى من السماء... ولقد خلقت طيبة عن طيب... ولقد وعدت مغفرة ورزقا كريما .

دور المجتمع :

هذا هو صفوان بن المعطل.. وهذا هو ماضيه الذى يزكيه. ويجعل من هذه الشائعة فرية لا تستحق المناقشة..

---

(١) رواه البخارى.

ولكنا ننظر إلى المجتمع من خلال النقول الواردة.. فماذا نرى:

١ عبد الله بن أبى يخطط لضرب القاعدة الإيمانية.. ويبعث جنده من كل وسواس خناس.. ليوسوس فى صدور الناس بكل منكر من القول وزور.

٢ ـ نجحت خطته الماكرة فى توريط بعض الصحابة الذين وإن برئوا من تهمة التخطيط والقصد إلى النيل من بيت الرسول.. لكنهم أخطأوا حين تساهلوا وانضموا تحت راية التضاحك والتفكه مع العابثين لا يلقون بالا إلى خطورة ما يقولون.

٣ ـ كان هناك فريق الساكتين.. الذين يساعدون بالسكوت فى «تمرير» الشائعة لتذيع وتنتشر..

ومعنى ذلك أن المجتمع كله تقريبا.. يتحمل وزر الذى حدث على اختلاف درجات هذا التحمل.. اللهم إلا بيتا واحدا فقد استثناه العلماء من عتاب الله تعالى للأمة الساكتة.. وهو بيت أبى أيوب الأنصارى:

روى أن أبا أيوب الأنصارى رضى الله عنه قال لأم أيوب: أما ترين ما يقال؟:

فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرم رسول الله ﷺ سوءا؟

قال: لا. قالت: ولو كنت بدل عائشة ما خنت رسول الله ﷺ: فعائشة خير منى. وصفوان خير منك.

وقد حكم الزوجان هنا العقل الذى خرج بنتيجة منطقية تنفى التهمة الحاصلة.. بل تنفى أن تكون تهمة من هذا النوع ابتداء.

ولذلك استثنى العلماء بيت أبى أيوب الأنصارى من تهمة الاشتراك فى هذا الإفك المبين.

الزوج يواجه العاصفة

يقول الزمخشرى: وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع مقالة فى أخيه أن يبنى الأمر على الظن لا على الشك.

وأن يقول بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير ﴿هذا افك مبين﴾

هكذا بلفظ المصرح ببراءة ساحته كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال.

قال القرطبى أبو عبد الله: هذا عتاب لجميع المؤمنين... أى: كان ينبغى عليكم أن تنكروه. ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل. وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوجة نبيه عليه الصلاة والسلام... وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان.

وقد وقع هذا التنزيه لله تعالى فخرج به من العتاب أبو أيوب الأنصارى وزوجته[1].

الزوج يواجه العاصفة:

تقول اللغة: إن «الأسرة» مأخوذة من الأسر وهو الإحكام والقوة.. ومنه قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾[2].

وإذن فهى أساس البناء ومناط الرجاء.. ولهذا السبب يركز الأعداء عليها بغية تفتيتها. ليسهل بعد ذلك التحكم فى مصير الأمة.

ولقد نهض ﷺ بدافع من إيمانه بأهمية الأسرة... ومن فهمه لمراد أعدائها. ليحميها من السهام المغرضة.

وقد جاءت حركته ﷺ على مجموعة من المحاور:

مع نفسه.. ومع مستشاريه.. ومع المجتمع.. ثم مع الزوجة فى بيت

---

(١) عرجون. السيرة النبوية ٤/٣٣٣

(٢) الإنسان ٢٨.

أبويها.. وبحضورهما.

أما مع نفسه.. فقد أذهلته المفاجأة كبشر.. وكزوج..

وإذا لم يشك لحظة من زمان فى طهارة زوجته.. لكن المؤلم حقا أن تجد الشائعة سبيلها إلى قلوب هى أول القلوب تكذيبا لها.. فتذرع بالصبر الجميل.. إلى جانب حركته المباركة فى محاولة سريعة لتطويق الفتنة.

دعا ﷺ مستشاريه من أصحابه.. أسامة بن زيد.. على بن أبى طالب.. عمر بن الخطاب.. زينب بنت جحش «ضرة عائشة» والمنافسة لها.. وبريره.. الجارية.

وكان هذا الاختيار موفقا حيث جمع فيه أفضل العناصر وأخلصها أيضا.. وإذا كان المتوقع أن تجور الضرة على ضرتها.. فإن الرسول ﷺ رأى أن يتخير من نسائه زينب بالذات والتى كانت تنافس عائشة رضى الله عنها.. لتكون للشهادة أهميتها إذا جاءت من منافس فى الجمال والكمال. لا سيما والمنافس امرأة قد تجنح بها عاطفتها إلى يمين أو يسار..

آراء المستشارين:

قال أسامة: أمسك أهلك يا رسول الله. فوالله لا أعلم عنهم إلا خيرا.

أما على فقال: يا رسول الله: لا تحزن. لم يضيق الله عليك. والنساء غيرها كثير.

وقالت زينب: أحمى سمعى وبصرى يا رسول الله. لا أعلم عنها إلا خيرا.

وقالت بريرة: ما رأيت شيئا آخذه عليها سوى أنها جارية حديثة السن. تنام على العجين فتأتى الدواجن فتأكله .

ونلاحظ ما فى مشورة على رضى الله عنه من حدة ربما عدها البعض تزهيدا فى أم المؤمنين عائشة.

ولكن بالتأمل الواعى ندرك صلة على بالرسول ﷺ: فهو قريبه.. ولصيقه.. وقد رأى من حزنه ما أرقه فأراد رضى الله عنه أن يخفف عنه ما يلاقى. فجاءت

نصيحته وافية بهذا الغرض. . مع الاحتفاظ لأم المؤمنين بالتقدير والاحترام.

ولقد اطمأن قلبه ﷺ اطمئنانا من نوع ذلك الذى طلبه إبراهيم عليه السلام حين قال لربه تعالى فيما حكته الآيات من سورة البقرة:

﴿رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى﴾ فالرسول ﷺ على غاية ما يكون اليقين. . لكنه فقط يخاطب الناس ليعودوا إلى الحق الذى يعلمون.

مواجهته للمجتمع:

بعد سريان الشائعة صعد المنبر فقال: «معشر المسلمين: من يعذرنى فى رجل - هو ابن سلول - بلغنى أذاه فى أهلى والله ما علمت على أهلى إلا خيرا. ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا. وما كان يدخل على أهلى إلا معى»[1].

ونلاحظ أن مجرد خيرية ابن المعطل لا تكفى. . فلابد مع توفر عناصر الصلاح فى صديق الزوج أن يبلغ الاحتياط مداه بعدم دخول البيت حال انفراد الزوجة وفى غياب رب الأسرة فرارا من فتنة يقع فيها اليوم رجال لم يفهموا هذا الدرس جيدا.

جلسة عائلية:

إلى هنا والمسألة منتهية بالنسبة للرسول ﷺ. . الذى أكد مستشاروه ما يوقن به قلبه. . ثم أعلنها قوية مدوية أجهزت على كل ما تقوّله المغرضون.

وتبقى بعد ذلك اللمسة الأخيرة فى نقلة إلى بيت أبى بكر. حيث تجتمع الأطراف المعنية فى محاولة لتقدير الموقف. واتخاذ القرار الملائم.

عائشة تروى ما حدث:

كل ذلك الموج العالى من الشائعات. . ورسول الله ﷺ صابر محتسب ينتظر الفرج. . لم يتخذ قرارا بشأن زوجه. . ولا أعرض عنها. . وإنما تلخص موقفه فيما روته عائشة رضى عنها:

---

(١) رواه البخارى.

وكان الذى يريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى .

ثم قالت عائشة رضى الله عنها: فبينما أبواى جالسان عندى وأنا أبكى - حتى إنى لأظن أن البكاء فالق كبدى - دخل رسول الله ﷺ علينا. فسلم. ثم جلس. ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل. فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس. ثم قال: **«إنه بلغنى عنك كذا. وكذا. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله. وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله. وتوبى إليه. فإن العبد إذا اعترف. ثم تاب. تاب الله عليه»**.

فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة.

فقلت لأبى: أجب عنى رسول الله ﷺ فيما قال.

فقال أبى: والله ما أرى ما أقول لرسول الله ﷺ.

فقلت لأمى: أجيبى عنى رسول الله ﷺ فيما قال.

قالت أمى: فوالله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ.

قالت عائشة رضى الله عنها: فقلت وأنا جارية حديثة السن - فى السادسة عشرة من عمرها - لا أقرأ من القرآن كثيرا: إنى والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حيث استقر فى أنفسكم وصدقتم به. فلئن قلت أنى بريئة لا تصدقون.. ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم إنى بريئة منه - لتصدقنى فوالله لا أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف حين قال: **﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾**

وكما برأ الله تعالى موسى عليه السلام.. وكما برأ يوسف عليه السلام.. برأ عائشة رضى الله عنها بقرآن يتلى..

وما كانت تطمع فى أكثر من رؤيا يراها رسول الله ﷺ تبرئ ساحتها.. لظنها أنها أقل من أن ينزل فى شأنها قرآن.. كما ذكرت الرواية..

ولكن الآيات تنزلت فغسلت همومها.. بل هموم المسلمين جميعا..

فلما سرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: **«يا عائشة إن الله قد برأك»**.

فقالت لى أمى قومى إليه. فقلت:

لا والله. لا أقوم إليه. فأنى لا أحمد إلا الله عز وجل.. هو الذى أنزل براءتى.

تعقيب:

يطالعنا هذا المشهد المثير بأمور منها:

١ ـ أسرة شريفة.. بل أشرف أسرة على الإطلاق. تتعرض لهزة عنيفة لم يسبق لها مثيل فى حياتها.. ولا خطرت منها على بال.. من حيث اتصالها بالعرض.. الذى هو أغلى ميراث العروبة.. وأهم ما يحافظ عليه الإسلام.. يقف الزوج المستهدف فلا يستسلم للشائعات.. ولا يتخذ قرار الطلاق فرارا من عذابه النفسى على الأقل. حتى يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

٢ ـ يتجه الزوج إلى الناصحين الأمناء.. ليرى المشكلة بأكثر من عين.. ويسمعها بأكثر من أذن.. ضاربا صفحا عن الشائعات.. التى سوف يكر عليها فيمحوها محوا. وبدءا بالعلاج من الصفر.. حتى يبلغ الكتاب أجله.

٣ ـ تنتقل الزوجة الى بيت أبيها حتى يتجلى الموقف.. وإلا فإن وحدتها فى بيت تظلله كآبة الموقف مما يزيد الطين بلة.. ويوسع شقة الخلاف التى لا يمكن تلافيها فيما بعد.. إلى جانب ما قد تفرضه من مشاحنات بين زوجين غير مستعدين للتفاهم حول قضية قد لا يقبل فيها الاعتذار.

٤ ـ فى قضية كهذه بالغة الحساسية.. يستبعد كل عنصر غريب حفاظا على أسرار البيوت.. وإتاحة لفرصة لا يتحرج الطرفان من الاعتراف بالحقيقة.

٥ ـ لم تصدر من الزوج كلمة واحدة تنم عن اهتزاز ثقته بزوجته.. كل ما فعله هو اختفاء الملامح الباسمة. وتوقف عبارات التلطف.. وهو تعبير رقيق عن ضيق صدره بما يقال.. ثم اعتزل الزوجة إلى حين.

٦ ـ يعرض الزوج ما سمعه بأمانة.. ثم يترك القرار الأخير للزوجة التى تجمدت الكلمات على شفتيها. كما تجمدت الدموع فى مقلتيها..

وكان إحساسها بالعفة أكبر من أن يستدل عليه.. فاستنجدت بأبيها وأمها ليردا على رسول الله ﷺ... ورغم اليقين الجازم بعفة الزوجة لكن الوالدين يؤثران الصمت..

وقد سجلا بهذه البادرة المنصفة خطأ بعض الآباء اليوم.. حين يقفون إلى جانب بناتهم بالحق والباطل.. فيزداد غضب الزوج.. وتحدث الفجيعة. مع أن التهمة لا وجود لها أساسا.. لكنه التعصب الأعمى من قبل الوالدين يثير فى الزوج - وهو فى أضعف أحواله - نخوة الرجولة.. فيكون الفراق.

أما أبو بكر وزوجه فقد آثرا الحكمة حتى ينجلى الموقف.. وهو لابد منجل عن عفة أصيلة فى البيت الأصيل.

٧ - دافعت الزوجة عن نفسها دفاعا ينتهى بالقضية إلى الخالق سبحانه. والذى برأها من فوق سبع سماوات. براءة وإن جاءت متأخرة لكن التأخير قد محص النفوس.. وأرخى الحبال للشامتين حتى ظنوا أنهم على شىء.. فلما جاءتهم الضربة كانت القاضية.. وخرجت «المرأة» فى شخص عائشة رضى الله عنها.. المرأة فى كل زمان ومكان.. أشرف ما تكون وأعظم ما تكون.

أصول التربية فى آيات البراءة :

أنزل الله عز وجل آياته الكريمة فبرأت عائشة أم المؤمنين مما قالوا... وذلك قوله عز وجل:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ. لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ. لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ. وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ. وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ

عَظيمٌ . يعظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمثْله أبدا إن كُنتم مُؤْمنين. ويُبيّنُ اللَّهُ لكُمُ الآيَات واللَّهُ عَليمٌ حَكيم. إنَّ الَّذين يُحبُّون أن تَشيعَ الْفَاحشةُ في الّذين آمنوا لهُم عَذَابٌ أَليمٌ في الدُّنْيا والآخرة واللّهُ يعلَمُ وأنتمْ لا تعْلَمُون . ولوْلا فضْلُ اللّه علَيْكُم ورحْمتهُ وَأَنَّ اللّهَ رءوفٌ رّحيم. يا أيُّها الّذينَ آمنُوا لا تتّبعُوا خُطُوات الشّيْطان ومن يتّبعْ خُطُوات الشّيْطان فإنّهُ يأْمُرُ بالْفحْشاء والْمنكر ولوْلا فضلُ اللّه عليْكُم ورحْمتهُ ما زكَىٰ منكُم مّنْ أحد أبدًا ولكنَّ اللّهَ يُزكّي من يشاءُ واللّهُ سميعٌ عليمٌ. ولا يأْتلِ أُوْلُوا الْفضْلِ منكُمْ والسّعة أن يُؤْتُوا أُوْلي الْقُرْبىٰ والْمساكين والْمُهاجرين في سبيل اللّه ولْيعْفُوا ولْيصْفحُوا ألا تُحبُّون أن يغْفر اللّهُ لكُمْ واللّهُ غفُورٌ رّحيمٌ . إنّ الّذين يرْمُون الْمُحْصنَات الْغافلات الْمُؤْمنات لُعنُوا في الدُّنْيا والآخرة ولهُمْ عذابٌ عظيمٌ﴾[1].

من فقه الآيات:

تلفت الآيات الكريمة نظر المسلمين إلى أن الإفك الذى كان بضاعة «مستوردة» غريبة على طبيعة المجتمع الإسلامى (جاء) به من خارج هذا المجتمع مجموعة منكم. . فلا تحاولوا تعليق الذى حدث على شماعة العناصر الأجنبية. . لأن الذين خططوا له منكم. . من دمكم ولحمكم. . وقد تكفل الحق سبحانه وتعالى بعقاب. . يصيب مدبره الأكبر كفلٌ منه أوفى

وانكشاف هذه الحقيقة يعينكم على الحذر فيما يقبل من أيامكم. . فإذا تبين ذلك كان حديث الإفك مفتاح خير كثير.

غفلة المؤمنين:

والآية الأولى دعوة إلى التأمل فى القضية بعد أن هدأ تراب المعركة. . وأتيحت الرؤية، ليعرف المسلمون خاصة كم كانوا غافلين حين سمحوا لمثل هذه الشائعة أن تمر بلا شعور:

ويلخص الرازى معنى الآية فيقول:

الإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء. وهو على عائشة أدخل فى

---

(١) النور ١١: ٢٣.

الإفك.. لماذا؟

١ ـ انها زوجة رسول معصوم. ومهمته إبلاغ رسالة ربه إلى الناس. وإذن فمن شأنه أن يحبب الناس فيها.. لا ينفرهم حين تكون الزوجة هكذا متهمة.

٢ ـ ولأن تكون الزوجة كافرة أولى من أن تكون فاجرة.. ذلك بأن الزنا من المنفرات والكفر ليس كذلك.

٣ ـ المعروف عنها قبل الزواج خلاف ما توحى به التهمة.. فكان لحسن الظن ما يبرره.

٤ ـ الذى خطط لهذه الفتنة أناس معروفون بالنفاق.. كان المتوقع عدم تصديقهم.. أو على الأقل مناقشة ما به يهرفون. ولئن ضاق صدره ﷺ بما يقولون فليس ذلك دليلا على شكه.. فكم كان يضيق بكلام الكفار مع علمه بفساد ما يدعون [1].

مظاهر الخير فى حديث الإفك:

وتطالعنا الآيات الكريمة بدرر من الحكمة البالغة.. تصاحب الإنسانية فى مسيرها: تقبس منها. وتطب لأمراضها. وتفىء إلى ظلها كلما غشيها من كيد الأعداء ما يغشى.

ومن هذه الحكم:

١ ـ كانت الآيات الكريمة دليلا قاطعا على أن القرآن من عند الله تعالى. وليس من صنع محمد ﷺ..

وإلا.. فلو كان من تأليفه لسارع إلى افتعال آيات تنقذه من محنته. فلما لم يفعل.. دل ذلك على أنه نبى يوحى إليه.

٢ ـ ترسخت قيمة الوحدة فى القلوب. وليس هناك جامع للصف المؤمن من الشدائد التى تصهره.. فتطهره من الدخيل.

---

(١) تفسير سورة النور بتصرف.

وقائل كيف أنت فـي المحـن | فقلت صنوان نحن من زمـــن
قد خلقت لى وقد خلقت لهـا | من قبل أن لم تكن ولـــم أكن
تألبـــى يـا خطوب واحتدمـــى | عودى كمـا تعهدين لـــم يلن
من كان حر الهموم يحسده | فـــإن حر الهمـــوم يصقلنـــى

٣ ـ ظهرت دلائل النبوة واضحة كالشمس . . راسية كالجبال.

٤ ـ في الآيات الكريمة تسلية لرسول الله ﷺ. وتبرئة لزوجه ولكل زوجة شريفة تتعرض مستقبلا لحملة تشهير تستهدف عرضها المصون.

٥ ـ كانت الآيات الكريمة إثباتا لطهارة آل البيت الذين أراد الله تعالى أن يذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيرا.

٦ ـ لم تكن الشدة التى احتوت المسلمين ضربة لازب . . لكنها الشدة الكاشفة عن ملامح العدو والصديق . . وذلك مكسب هائل يميز الله به الخبيث من الطيب . . ليعرف المسلمون من هو العدو . . ومن هو الصديق . . تخليصا لهم من الشوائب . . ومن الألغام التى يمكن فى ساعة العسرة أن تتفجر من الداخل فيخر عليهم السقف من فوقهم.

٧ ـ نفس الآيات الكريمة حارسا يقظا على عرض المرأة . . فى كل زمان . . وشهابا رصدا يردع كل راغب فى إحداث شرخ فى بناء الأسرة المسلمة.

٨ ـ وأراد الحق تعالى أن يجعل هذه الحادثة درسا تربويا بليغا للمجتمع المسلم . . تبقى معه آثاره ما بقى فى الحياة من يتلو آيات الله من الهدى والنور. وأن يجعل منها نكالا للنفاق والمنافقين. وللذين فى قلوبهم مرض لا يشفيه إلا الإرجاف بالسوء وإشاعة الأكاذيب والبهتان فى مجتمع المؤمنين.

وأن يجعل منها منارا على طريق الذين ملأ الايمان قلوبهم ليزيدهم علما بمقام رسول الله ﷺ. ومعرفة بحرماته. وتقديرا لمنزلته عند ربه الذى أرسله هدى ورحمة للعالمين.

وأن يجعل منها منهجا لمعالم الاصطفاء لخواص المقربين لرسول الله ﷺ.

لتعرفهم الأمة بنعوت فضلهم وفواضلهم. وتعرف لهم أقدارهم فى ذروة دوحة الإيمان والمؤمنين.

وأن يجعل منها خصيصة ليرفع من شأن أطهر الطاهرات: الصديقة بنت الصديق. زوج أحب خلق الله إلى الله. إظهارا لشرفها الذاتى والاجتماعى. وإنافة لمكانتها فى أهل البيت، طهرا وفضلا وشرفا. وثقلا فى ميزان الفضائل الإنسانية والإيمانية لمكانها من قلب رسول الله ﷺ[1].

يقول صاحب الظلال:

قوله تعالى. ﴿بل هو خير لكم﴾

خير: فهو يكشف عن الكائدين للإسلام فى شخص رسول الله ﷺ وأهل بيته. وهو يكشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف. وأخذ القاذفين بالحد الذى فرضه الله. ويبين مدى الأخطار التى تحيق بالجماعة لو أطلقت فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات. فهى عندئذ لا تقف عند حد. إنما تمضى صعدا إلى أشرف المقامات. وتتطاول إلى أعلى الهامات. وتعدم الجماعة كل وقاية وكل تحرج. وكل حياء.

وهو خير أن يكشف الله للجماعة المسلمة ـ بهذه المناسبة ـ عن المنهج القويم فى مواجهة مثل هذا الأمر العظيم. أما الآلام التى عاناها رسول الله ﷺ وأهل بيته. والجماعة المسلمة كلها. فهى ثمن التجربة. وضريبة الابتلاء الواجبة الأداء.

أما الذين خاضوا فى الإفك فـ ﴿لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم] ولكل منهم سوء العاقبة عند الله. وبئس ما اكتسبوه.. [والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ يناسب نصيبه من ذلك الجرم العظم.. وإن الإنسان ليدهش ـ حتى اليوم ـ كيف أمكن أن تروج فرية ساقطة كهذه فى جو الجماعة المسلمة حينذاك. وأن تحدث هذه الإثارة الضخمة فى جسم الجماعة. وتسبب هذه الآلام القاسية لأطهر النفوس. وأكبرها على الإطلاق. لقد كانت معركة خاضها رسول الله ﷺ وخاضتها الجماعة المسلمة يومذاك وخاضها الإسلام...

---

(١) الشيخ الصادق عرجون: محمد رسول الله جـ٤/ ٢٢٤، ٢٢٥.

معركة ضخمة لعلها أضخم المعارك التى خاضها رسول الله ﷺ. . . وخرج منها منتصرا كاظما لآلامه الكبار. محتفظا بوقار نفسه وعظمة قلبه. وجميل صبره. . . فلم تؤثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاد صبره وضعف احتماله.

والآلام التى تناوشه لعلها أعظم الآلام التى مرت به فى حياته. والخطر على الإسلام من تلك الفرية من أشد الأخطار التى تعرض لها فى تاريخه [1].

٩ ـ تيقن المسلمون أن النبى ﷺ لا يعلم الغيب وإلا لما أصابه القلق وسأل الخدم. ثم عليا. . وأسامة. . وأزواجه بل لقد سأل عائشة نفسها. .

١٠ ـ ظهرت هذه القاعدة القانونية الاجتماعية وهى: أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته. . تثبت بدليل قوى عصى على الاهتزاز.

١١ ـ ثم تبين لهم خطة الأعداء: الذين يريدون بحرب التشويش ضرب النظام الأخلاقى من أساسه. . . هذا النظام الذى به تنتصر الأمة على أعدائها. .

١٢ ـ إن الرمى بالزنا ليس مسلاة. . ولا ملهاة. . وإنما هو سم يسرى فى دم المجتمع فيفسده. .

الإعداد للمستقبل:

هذه هى الحادثة. . وتلك هى ثمراتها. . فلتكف الألسنة عن الخوض فيما مضى. . لتستأنف الرحلة فى ضوء ما أشارت إليه الآيات. . حتى نعيد صياغة المجتمع عن طريق التربية بالأحداث حتى لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. . وتفويتا لمكر الأعداء الذى ظهرت دلائله.

عتاب للأمة كلها:

يقول سبحانه: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين﴾.

قال الزمخشرى: فإن قلت: هلا قيل: لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرا وقلتم. ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة؟ وعن الضمير إلى الظاهر؟

---

(١) فى ظلال القرآن.

قلت: ليبالغ فى التوبيخ بطريقة الالتفات. وليصرح بلفظ الإيمان. دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصدق مؤمن على أخيه. ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن].

ومعنى ذلك أن الآية الكريمة تعاتب الأمة كلها ـ دون أبى أيوب الأنصارى وزوجه كما أسلفنا ـ لسكوتها. . حتى انتشرت هذه الشائعة المغرضة.

فالمتكلمون فيها مع سبق الإصرار. أو انسياقا مع التيار ليسوا وحدهم أهلا للعقاب لكن الساكتين من المدينة بينما يتعرض أطهارهم وعلماؤهم لقالة السوء مثلهم مذنبون.

وما أكثر الذين يحسبون أنهم ناجون من النار حين يسكتون مؤثرين السلامة. . بينما قممهم تتعرض للسهام المسمومة يفرغها أعداؤهم فى صدورهم. . بلى. . إنهم لآثمون ولكنهم لا يشعرون. ومن هنا كان حسن الظن بالمسلم مما يدعو إليه الاشتراك فى الإيمان. . هذا الإيمان الذى جعل من المسلمين جسدا واحد إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر. .

قال أبو بكر الرازى:

[هذا يدل على أن الواجب فيمن كان ظاهره العدالة أن يظن به خيرا. ويوجب أن تكون عقود المسلمين وتصرفاتهم محمولة على الصحة والجواز.

وذلك قال أصحابنا فيمن وجد رجلا مع امرأة أجنبية فاعترفا بالتزويج إنه لا يجوز تكذيبهما بل يجب تصديقهما[(١)].

إن الإسلام الحريص على ألا تستنطق البغى حتى لا يشيع كلامها. فتبرز الرذيلة بوجهها الكالح. هذا الإسلام هو الذي يحرص على أن تظل البيئة نظيفة بمثل هذا التوجيه.

وتكفى الصدمة فى مثل هذا الموقف لإيقاظ الضمير الغافل ليعود المذنب إلينا طاهرا كما كان .

---

(١) تفسير الرازي سورة النور: ١٧٩

تهافت الشائعة:

تواصل الآيات الكريمة تربية الأمة الإسلامية بتذكيرها بما غفلت عنه: فلو جاء الآثمون بأربعة شهداء فربما كان هناك عذر للانسياق في تيارهم لكنهم لم يأتوا فكانوا كاذبين. ثم وقعتم في شراكهم. ومع ذلك فقد عفا الله عنكم عفوا حماكم من عذاب عظيم كان سيحتويكم لو لم تستيقظوا على دقات الحقيقة فى الوقت المناسب.

آيات النفاق:

يقول سبحانه: **﴿إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾** إن المسلم ليترجم لسانه عما فى قلبه.. فله قلب واحد ولسان واحد.

أما المنافق فهو كالحرباء يحسن التلون كيفما شاء.

والآية الكريمة تربأ بالمسلم أن يتشبه بالمنافق الذى يهرف لسانه بما لا يعرف. وما لا يجد له صدى فى قلبه..

وتنأي بالمسلم أن يكون جهاز استقبال.. يرسل ما عبئ فيه من كل ناعق!

إذا ظننتم.. فلا تحققوا يقول سبحانه: **﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم﴾**.

وعلى فرض أن غريزة حب الاستطلاع غلبتكم على أمركم.. فكان ينبغى ألا تسقطوا فى الجولة التالية.. وكان يكفى - إذا كان ولابد - أن تظنوا فما بالكم تظنون.. ثم تتكلمون. وتعلنون؟

لقد كان إيمانكم يحتم عليكم إعلان البراءة. وإدانة هذه الحملة المغرضة معلنين شعارا واحدا: **﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾**

وإذا كان قد حدث ما حدث.. فالمهم أن نتعلم من أحداث الزمان. وأهم منه ألا نعود لمثل هذا الذى فعلناه.

مجرمون خارج القفص

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (١).

إذا قال الشاعر الحكيم: أحب الصالحين.. ولست منهم.. فإنه بهذا الصلاح يضع قدمه على طريقهم.. ليصل إلى مثل ما وصلوا إليه...

وذلك قوله: لعل الله يرزقني الصلاحا

وإذا لم تستطع أن تكون قمة جبل.. فكن هضبة أو ربوة. كما يقولون.

ومعنى ذلك: أن هذا الرجل إذا لم ترشحه ملكاته اليوم ليكون صالحا فإنه بمحاولة التأسي ومداومته يثبت أن فى كيانه ضميرا حساسا يأخذ سمته فى اتجاه الخير.. وإن لم يصل إليه فقد حاول..

وعليّ أن أسعى.. وليس عليّ إدراك المطالب

وعلى النقيض من ذلك: ترى رجلا.. لا يرتكب فاحشة ولا إثما.. لكنه يحب أن تصير الفاحشة فى المجتمع ظاهرة متفشية..

وبالذات: في وسط الذين آمنوا!!

وهذا هو: عمله. وأمله.. وبه يقف على رأس قائمة العصاة الآثمين:

فالذين تميل نفوسهم إلى إذاعة الفواحش بالقول أو العمل فى الأمة الإسلامية.. ثم يترجمون هذا الميل إلى عمل أوجب الله لهم عذابا أليما فى الدنيا. وفى الآخرة. كفاء الآثار المرة المترتبة على هذا الاتجاه العدوانى:

إن اشاعة الفاحشة في المجتمع الإسلامى باللسان. أو الجهر بفعلها تؤدى إلى:

أ ـ تحطيم مقومات المجتمع النفسية..

ب ـ الشك فى انتصار الفضيلة على الرذيلة. والحق على الباطل.

---

(١) النور: ١٩

جـ ـ وينتهى الأمر بتحطيم الحواجز بين الخير والشر . . والفوضى والنظام . .

د ـ وتفقد الأمة حينئذ عناصر وجودها . . لتكون لقمة سائغة فى فم عدوها.

لقد علمتنا القرية من حكمتها الباقية: أن الله يغفر للمجرم . . لكنه سبحانه قد لا يغفر لمن يتستر عليه!

فالآثم الوالغ فى المعصية قد يكون واقعا تحت ظروف قاسية . نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية . فرضت عليه معصية هو أساسا غير مستعد لها . .

ولكن . ما بال هذا الذى نجاه الله من المعصية . بيد أن أمله أن تشيع الفاحشة . وفى المؤمنين بالذات؟! ليصبح المجتمع فوضى . . بعد أن سقطت قيادته فى حبائل الشيطان؟

إن هواة الإثم يسيرون فى اتجاه الشر دائما . .

وهذا الهوى الذى يعايش العصاة فى كل مكان . ومن كل لون يشعل فى قلوب العاصى الرغبة الملحة أن يزيد العصاة واحدا . . هو نفسه!

ولولا عجزه عن العصيان لأسباب خارجة عن إرادته . . لكان منهم . . إنه مجرم . . ولكنه خارج القفص . .

من الحكم المأثورة:

قال الصابى:

وللسر فيما بين جنبى مكمن	خفى قصى عن مدارج أنفاسى
أضن به ضنى بموضع حفظه	فأحميه عن احساس غيرى واحساسى
فقد صار كالمعدوم: لا يستطيعه	يقين ولا ظن لخلق من الناس
كأنى من فرط احتياطى أضعته	فبعضى له واع وبعضى له ناسى

أساس البلاء:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد

أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم﴾.

تلفت الآية الكريمة نظر المسلمين إلى أن للفتنة التى وقعت سببا رئيسا هو اتباع وسوسة الشيطان الذى تنحصر وظيفته فى الأمر بالفحشاء والمنكر..

ومن شأن إيمانكم بالله تعالى أن يسد هذا الباب الذى تهب عليكم منه رياح الفتنة الجائمة.. فاحذروا كيد الشيطان الذى يقعد لكم كل مرصد... فإذا صقلتكم التجربة واستوعبتم آثارها... كنتم جديرين برعاية الله تعالى الذى لا تتخلى عنكم رحمته. هذه الرعاية الإلهية التي لولاها ما سلم منكم أحد من كيد الشيطان: ﴿والله سميع عليم﴾.

وإذا مضى الكافرون فى غمرتهم ساهين يترسمون خطى الشيطان.. السائر بهم إلى الهلاك.. فإن من نعمة الله عليكم أن نجاكم من هذا المصير.. حين بصركم بمنشأ الفتنة.. وشخص لكم العلة.. وتحديد وسائل شفائها نعمة ينبغى أن تشكر.

ومحواً لآثار العدوان من قبل الشياطين ـ شياطين الإنس والجن ـ فلابد أن تعود الحياة إلي مجاريها.. بين المؤمنين. وإذا أقسم أبو بكر رضى الله عنه ـ أو غيره ـ على قطع المعونة المالية عن قريبه الذى خاض فى حديث الإفك.. فإن مما يسعد الشيطان أن تستمر هذه القطيعة.. ففوتوا عليه أغراضه بالعفو والصفح واستمرار العون.

وذلك قوله تعالى: **﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾.**

وصحيح أن ظلم الأقرباء شديد الوطأة مر الثمرة على ما يقول الشاعر:

وظلم ذوى القربى أشد غضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند

لكن مغفرة الله تعالى تحمل على نسيان ما حدث فهى أعز على الإنسان من استجاته للانفعال الذي لا يخلف إلا الندم.. وتحقيق أغراض الأعداء

يقول الرازى:

[اعلم أنه تعالى كما أدب أهل الإفك ومن سمع كلامهم فكذلك أدب أبا بكر لما حلف ألا ينفق على مسطح أبدا.

قال المفسرون: نزلت الآية في أبي بكر حيث حلف ألا ينفق على مسطح وهو ابن خالة أبى بكر... وقد كان يتيما فى حجره وكان ينفق عليه وعلى قرابته.

فلما نزلت الآية قال لهم أبو بكر: قوموا فلستم منى ولست منكم. ولا يدخلن على أحد منكم.

فقال مسطح: أنشدك الله والإسلام. وأنشدك القرابة والرحم إلا تحوجنا الى أحد فما كان لنا فى أول الأمر من ذنب. فقال لمسطح: إن لم تتكلم فقد ضحكت!

فقال: قد كان ذلك تعجبا فلم يقبل عذره. وقال: انطلقوا أيها القوم فإن الله لم يجعل لكم عذرا ولا فرجا... فخرجوا لا يدرون أين يذهبون. وأين يتوجهون من الأرض. فبعث رسول الله ﷺ يخبره بأن الله تعالى قد أنزل على كتابا ينهاك فيه أن تخرجهم فكبر أبو بكر وسره.

وقرأ رسول الله ﷺ الآية. فلما وصل إلى قوله: ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾.

قال: بلى يارب إنى أحب أن يغفر لى وقد تجاوزت عما كان.. فذهب أبو بكر إلى بيته وأرسل إلى مسطح وأصحابه. وقال: قبلت ما أنزل الله على العين والرأس وإنما فعلت بكم ما فعلت إذ سخط الله عليكم. أما إذا عفا عنكم فمرحبا بكم. وجعل له مثلى ما كان له قبل ذلك اليوم [(١)].

لقد كان أبو بكر رضى الله عنه واقعا تحت ضغط ثقيل.. من حيث استهدف عرضه.. وربما تحمل الهجوم من كافر منطقى مع نفسه.. أما أن تأتيه القذيفة من منطقة الأمان.. من مسلم: هو قريبه وابن خالته.. ويضره شخصيا صحة الشائعة!

ثم إنه ينفق عليه.. ويحميه مع أقربائه من تحكم الغير فى كرامته.. لا سيما

---

(١) رواه البخارى.

وقد نشأ فى بيته يتيما. . كل ذلك يشكل هما ثقيلا أرق الرجل الكريم. . وفرض عليه أن يتخذ قرارا يأباه طبعه الكريم. . لولا هذا الظلم المضاعف. . من جهة لم يكن يتوقع منها التمرد. . ولعمرى إنها معركة أشد وقعا من مجاهدة الكفار. . لأن هذا مجاهدة مع النفس.. وذلك مجاهدة مع الكافر. ومجاهدة النفس أشق[1].

أقل ما يجب :

ولهذا لم يسع أبا بكر إلا أن يطرد الأقرباء الغافلين. . قاطعا معونته عنهم. . وتبدو النتيجة الموجعة حين يواجه مسطح ورفاقه الحياة لأول مرة بلا مال. . وإذن فقد تعرضت كرامته لقهر الرجال!

وحين يستعطف أبا بكر ألا يسلمه إلى هذا الهوان. . بحجة أنه ما فعل إلا لأنه ضحك مما قيل. . فإن أبا بكر رضى الله عنه يرفض عذره. . صادرا فى هذا الرفض عن إيمانه بأن الذين يشيعون الفاحشة فى الذين آمنوا لو وجدوا ألسنة تدافع بحق. . وعما تعتقده صدقا. .

لو وجدوا من يدافع عن الطاهرات العفيفات. . لما انداحت الدائرة. . ولوئدت الشائعة فى مهدها. .

لكنهم للأسف الشديد. . وجدوا قلوبا غافلة عن خطورة ما يحدث. . وربما كان الاستماع بغية الاستمتاع بغريب الحديث. . ولو كان من بعده الطوفان. .

وما أكثر ما يحدث فى حياتنا: فهناك أناس لا ينشئون الفتنة إنشاء. . ولكنهم يمكنون لها بالسكوت. . أو التغافل. . أو المداعبة. .

وحين يكون الأمر كذلك فإن الجميع: المتكلمين. . والساكتين على خطر عظيم.

فلما نزل الوحى الأعلى داعيا إلى أن يستمر الود وتنتظم المعونة أحس أبو بكر رضى الله عنه بسعادة غامرة. . ظهر ذلك حين كبر وسره ما نزل من قرآن. .

---

(١) الرازى.

ومعنى ذلك أن النفس العظيمة تظل عظيمة فى كل آن. . وإنها دائما نبع للخير. . لا تمنعه إلا حين يتعرض ذلك النبع نفسه للخطر. . فإذا زال الخطر. . فالنفس العظيمة على عهدها القديم عطاء ووفاء.

وقد كان سروره بأمر ربه غامرا كما قلنا حين أسرع بالاستجابة. . ثم ضاعف المعونة تقديرا وإحساسا بنعمة ربه. . مع ملاحظة أن أبا بكر رضى الله عنه لم يحتكم أبدا فى قراره إلى عواطفه. . وإنما أمره بيد الله تعالى: فهو يقطع المعونة حين يقطعها. . ثم يستأنفها حين يستأنف خضوعا لأمر الله تعالى. .

ولقد كان العفو محققاً آثاره: فلو بقيت المعونة مقطوعة لكانت هناك مجالات للقيل والقال. . ولأتحنا لكل مغرض من الأعداء أن يضرب على الوتر الحساس دائما. . لافتا نظر من لم يكن يعرف قصة الإفك أن فلانا قطع عونه عن فلان بسبب كذا. .

أما إذا جاء العفو. . فإنه يغطى وإلى الأبد كل ما حدث. . ولا يمكّن أعداء الإسلام من نبش القبور. . والبكاء على الأطلال.

وتلك نعمة يمن الله تعالى بها علينا. . تؤكد أنه: رب ضارة نافعة: نافعة حتى الذين تورطوا فى المعصية حين عادت إليهم المعونة مضاعفة حمدا لله على ما أنعم من براءة. . وما رد من كيد أعداء يرون الصف المسلم اليوم أقوى مما كان.

وبعد:

[فهكذا بدأت غزوة بنى المصطلق بما بدأت به من أحداث الفتن الجسام التى دبرها النفاق تحت أستار الظلام. وكوارث النوازل العظام. التى أذاقت المسلمين جرعا من مرارة أحداث «أحد».

ولكن الله تعالى بمنه وفضله أخرج منها نبيه محمدا ﷺ ومجتمعه المسلم. وأهل بيته الأكرمين. وصاحبه وصديقه الأمين. كما يخرج الذهب المصفى والجوهر المخلص من مخلطات المعادن. وألوية النصر تخفق فوق رءوسهم. وحفاوة الله تعالى تكتنفهم من جميع جوانبهم. ونعمه السوابغ تحيط بهم من أقطارهم.

وهكذا ختمت بإعراس النبى ﷺ بالسيدة الجلية جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق التى خلع الله عليها جلابيب السيادة الحقيقية بإعراس النبى ﷺ بها. فكانت أما للمؤمنين تعظيما وتوقيرا وإسعادا لها بكنف رسول الله ﷺ. وإدخالا للبهجة على رسول الله ﷺ بما وهبها الله من كمال إنسانى كانت به من صفوة نساء العالمين.

ولقد رأت من رسول الله ﷺ ما رأت وسمعت ما سمعت.. فوعت ذلك كله إلى جانب ما اختصت برؤيته من أسرار بيت النبوة.. ثم نقلته إلى الأمة زادا من التقوى (١).

أما بعد:

فيقول ابن القيم جوابا عن تساؤل حول حديث الإفك وتوقف الرسول فى أمر عائشة وحبس الوحى أكثر من شهر.

[فالجواب أن هذا من تمام الحكم الباهرة التى جعل الله هذه القصة سببا لها. وامتحانا وابتلاء لرسول الله ﷺ. ولجميع الأمة إلى يوم القيامة. ليرفع بهذه القصة أقواما. ويضع بها آخرين. ويزيد الله الذين اهتدوا هدى وإيمانا. ولا يزيد الظالمين إلا خسارا.

واقتضى تمام الابتلاء والامتحان أن حبس عن رسول الله ﷺ الوحى شهرا فى شأنها لا يوحى إليه فى ذلك شىء. لتتم حكمته التى قدرها وقضاها. وتظهر على أكمل الوجوه. ويزداد المؤمنون الصادقون إيمانا وثباتا على العدل والصدق وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته. والصديقين من عباده.

ويزداد المنافقون إفكا ونفاقا. ويظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم. ولتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها. وتتم نعمه عليهم... ولتشتد الفاقة والرغبة منها ومن أبويها والافتقار إلى الله. والذل له. وحسن الظن به. والرجاء له. ولينقطع رجاؤها من المخلوقين. وتيأس من حصول النصرة والفرج على يد أحد من الخلق.

---

(١) محمد رسول الله جـ٤/٢٤٩ بتصرف يسير.

ولهذا وفت لهذا المقام حقه. لما قال لها أبواها: قومى إليه وقد أنزل الله عليه براءتها. فقالت: والله لا أقوم إليه. ولا أحمد إلا الله.. هو الذى أنزل براءتى.

وأيضا: فكان من حكمة حبس الوحى شهراً أن القضية نضجت. واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه الله إلى رسوله فيها. وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع فوافى الوحى أحوج ما كان إليه رسول الله ﷺ. وأهل بيته والصديق وأهله... وأصحابه والمؤمنون.. فورد عليهم ورود الغيث على الأرض وهى أحوج ما كانت اليه... فوقع منهم أعظم موقع وألطفه. وسروا به غاية السرور. وحصل لهم به غاية الهناء].

تعقيب:

رجعت إلى الأوراق المتناثرة هنا وهناك فى مكتبتى.. فوجدت هذه الخواطر التى سطرتها بعد درس من دروس التفسير فى معهد منوف الدينى ـ فى الستينات ـ ورأيت من المفيد أن أثبتها هنا..

فإن كان فيها تكرار لبعض أفكار سلفت.. فهى الذكرى.. والذكرى تنفع المؤمنين.. وإن كانت جديدة.. فهى مفيدة إن شاء الله تعالى فائدة عائدة على من علّمونا وأفدنا منهم هنا.

حديث الإفك :

الإنسان بفطرته طلعة: يبحث عن المجهول فى محاولة لاكتشافه. والوقوف على أسراره.

والإسلام الحنيف يقدر هذه النزعة تقديرا سوقا إليها وحضا عليها فى مثل قوله تعالى فى سورة الحج:

﴿أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾. أى أن القلوب تجمع حصيلة هذا النظر فى مسارح الكون.. لتكون فى النهاية سبيلها إلى مرضاة الله تعالى.

وهى تلفت الأنظار فى ذات الوقت إلى نوع من القلوب يعبر عن تخبطه إزاء ما يرى وما يسمع من مشاهد الكون.. متجاوزا بذلك حدود الحق.

وقد جاءت سورة النور واضحة بين أيدى الناس مجموعة من الحقائق.. فى مقدمتها «حديث الافك» لتكون دليلا على الطريق:

لقد أثبت حديث الإفك: كيف أن غريزة الاستطلاع فى كيان الإنسان نزاعة دائما إلى معرفة المجهول.. إلى الحد الذى تتجاوز فيه حدود ما أراد الله تعالى.. لتكون فاضحة.. بدل أن تكون ناصحة!!

ثم.. كيف أن القوى الماكرة تملك من الخبث والدهاء، ما تؤثر به فى الصف المؤمن.. وأن الإيمان الصاحى قد يغفل يوما عما يراد به من سحب ثقته بقيادته المؤمنة!

ولقد فصل القرآن القول تفصيلا كاشفا للناس معالم الهدى لو أنهم تعرضوا لمثل هذا الموقف العصيب فيما يقبل من الزمان:

فالمنافقون يديرون المعركة الماكرة. والتى هيأ الله سبحانه أسبابها لحكم يعلمها.

وكأنما كانت عائشة رضى الله عنها تقدم نفسها للأجيال من بعدها.. إلى كل امرأة شريفة.. وكل رجل شريف.. ليفتحوا أعينهم جيدا على مسرح حدث هائل هز الأمة كلها عند وقوعه. ليروا قطعة من تاريخهم.. كان لابد أن تحدث.. حتى يتبين الناس كيف تصاغ التهم.. ولمن توجه..

وكيف كانت الثورة المضادة للإسلام ممثلة فى المنافقين - ومن ورائهم اليهود - كيف كانت تحرك الحوادث لحسابها. وفق خطة محكمة.. قد تغافل الإيمان الصاحى لتحدث فى بنائه شرخا.. قد يتسع مع الأيام.

ولكى يكون الموقف أخيرا عبرة تفسر موقف أحفاد هؤلاء الأشرار. والذين يضربون الضربة الخاضعة لحسابات دقيقة: لقد اتهموا عائشة رضى الله عنها.. وبالذات.. فلماذا؟

إن فارق السن بينها وبين الرسول يشكل مسافة طولها ثلاثون عاما.. أو تزيد... ثم هى شابة فى ريعان شبابها قد تضيق مثلها - لا هى رضى الله عنها - بشيخ فى سن أبيها.

وإذن فالناس مهيأون - من أجل ذلك - لتصديق التهمة الجائرة؟!

لماذا لا يصدق الناس.. وقد كان الوقت ليلا.. وكانت الخلوة شرعية؟

ولاحظ كيف دق الكيد ولطف.. حين جاءت التهمة بعد النصر الساحق الذى أحرزه الرسول ﷺ على بنى المصطلق.

هذا النصر الذى يراد إخفاء معالمه اليوم.. بقلب الفرحة الغامرة لتكون مأتما وعويلا؟!!

خطورة الكلمة:

إنه إذا كان للدم فى جسم الإنسان مسيره المعلوم.. وشراايينه التى يتدفق فيها.. فإن للكلمة المسموعة مسيرها:

إن الإنسان يسمع بأذنيه.. ثم يعرض على عقله وقلبه ما سمع..

وإذا لم تحدث الكلمة الخبيثة أثرها المدمر.. فإنها لا شك تاركة بقية من البلبلة.. التى تشوش على الحقائق.. فترة تقصر أم تطول.

ولقد طال الزمن فعلا.. ولكن الآيات تترى من فوق سبع سماوات صادعة بالحق قلوب عليها أقفالها.. **﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾**.

أما بعد:

فعندما تحرم الشريعة أمرا.. فإنها تنهى عن كل ما يثير الشهوة إليه.. من الدواعى والأسباب.. حتى تقف بالمسلم على مسافة بعيدة.. عن حافة المنكر حتى لا يسقط فيه.

وما كان للمجتمع أن يكون فيه شائعات من هذا النوع.. إلا لأن فيه أسباب الشهوة..

ومنها:

١ ـ دخول البيوت بغير إذن.

٢ ـ ثم جماعة العزاب.

٣ ـ والاختلاط.

٤ ـ ثم السفور والتبرج.

وقد كان لسورة النور منهجها فى التحذير من هذه الدواعى.

ضيوفنا

بين الاستئذان .. والاستئناس

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾[1].

كما أن الاشجار فى حاجة إلى طقس مناسب فى درجة حرارته أو برودته.. حتى ينمو ويثمر.. فإن حقائق الدين أيضا فى حاجة إلى هذا الطقس.. لتزدهر هذه الحقائق فى قلوبنا وتؤتى أكلها..

إن الإسلام ليس دينا عقليا يعيش فى الذهن وحده.. وليس هو فلسفة ترقد فى بطون الكتب نظريات ومحاورات..

ولكنه مع ذلك دين أخلاق وذوق هى الثمرات المرجوة لعقيدته فى دنيا الناس..

والآيات الكريمة معلم بارز من المعالم القرآنية التى تنمى هذا الذوق فى وجداننا..

حين تخترق هذا الوجدان بأعلى أنماط الذوق لتستقر فى أعماق الإنسان.. ولتكون للعقيدة حينئذ قوتها.. وللأخلاق ثمراتها.

جنة الإنسان:

وإذ يقول الأثر «جنة الرجل داره» فقد وجب علينا أن نبقى داره كذلك. وكيف؟

إن زيارتك أخاك المسلم جزء من خطة الإسلام الرامية إلى تنمية العلاقات

---

(١) النور: ٢٧ ـ ٢٩.

الأخوية بينكما.. ولكن.. على نحو تصون به سمعة الآخرين وراحتهم. بقدر ما تصون به نفسك أيضا من فتور الآخرين فى استقبالك. وحتى لا تكون ذلك الضيف الثقيل! «زر غبا تزدد حبا»

والمفروض أن تكون الزيارة على فترات متباعدة.. لتظل القلوب مشغولة بلقائك.. متلهفة عليه.

وإذا حان وقت الزيارة.. فلتكن فى صحبة ذوق حساس.. ونفس ذواقة.. تقدر ظروف الآخرين:

لا يكفى أن تدق الباب.. أى لا يكفى الاستئذان.. ولا يكفى أيضا أن ترفع صوتك مستأذنا فى الدخول.. وأهم من ذلك كله أن تدق الباب فى الوقت المناسب.. وأن ترفع الصوت بالقدر المناسب!

أن تقرأ ما وراء السطور.. وأن تخترق الحجب متلمسا أنسب الظروف.. فقد يكون المضيف عائدا من سفر. أو مقدما عليه..

وقد يكون مستريحا فى وقدة الظهيرة.. أو فى سجوة الليل.. وأصحاب الأذواق الرفيعة يدركون هذا.. ويرتبون أعصابهم على تحمل تبعاته..

أما الذين يلتزمون بحرفية النص فيصفقون.. أو يصوتون.. فى أى وقت.. وفى كل ظرف.. فأولئك هم المستأذنون.. وليسوا بالمستأنسين!

الثمرات المرة:

والإسلام حريص على دوام الارتباط الوثيق بما شرع من آداب تصون كرامة الإنسان.. وتحفظ سمعة البيوت أن تنال بأذى.

ومن هنا شرع الاستئناس.. فرارا من الثمرات المرة التى تأتى نتيجة طبيعية لكل تصرف لا يحترم آداب الإسلام فى هذا الباب:

١ ـ لو دخل إنسان بيتا بغير إذن فربما رآه من يتهمه فى خلقه.. أو يتهم البيت فى سمعته.. فطار بالشائعات فى كل مكان.

٢ ـ وقد يخرج من البيت فيراه صاحبه العائد فجأة.. فينتهزها الشيطان فرصة

يفجر فيها ينابيع الشك فى قلب الزوج الغيور.. وقد يكون الطلاق.. وتشريد الأولاد وتمزيق سمعة الجميع.

٣ـ يتحرك الطابور الخامس ليستثمر هذه الشائعات التى لا أساس لها من الصحة.. اللهم إلا هذا الطيش الذى لم يقدر كرامة البيوت. فكان فى تسرعه تصدع بنيانها..

وسوف يمر زمان طويل قبل أن نقنع المجتمع بطهارة بيت مظلوم وقع ضحية لتسرع جهول.

دقة الإسلام:

وليس هناك أحد فوق هذا الأدب.. فهو القاعدة التى يجب احترامها.. حتى بالنسبة للأعمى الذى لا تعفيه عاهته من واجب الاستئناس.. وحتى الولد بالنسبة لأبيه وأمه:

قال رجل للنبى ﷺ:

أأستأذن على أمى؟ قال: «نعم» قال: ليس لها خادم غيرى.. أأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: «أتحب أن تراها عريانة؟!» قال: لا.. قال: «فاستأذن عليها».

فأنت ترى الرجل يلح على الرسول ﷺ فى سبيل الحصول على حق الدخول بلا إذن: لأنها أمه أولا.. ولأنه خادمها الوحيد ثانيا.

وإزاء إصراره يواجهه ﷺ بالمشهد المانع من التسيب. والمؤكد لأهمية الاستئذان.. قبل أن يفاجأ بمشهد يحطم كيانه.. لو رآه!

من أوهام الزائرين:

يقوله تعالى: ﴿ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون﴾.

فيه إرشاد إلى ما حوى هذا الحكم من عظيم المصلحة التى ترجع على ما يتوهمونه من أن فى الاستئذان وانتظار الإذن مذلة ومهانة للمستأذن المنتظر. وقد يكون فى غنى عن هذه الزيارة. أو قد تكون زيارته لمصلحة المزور. أو نحو ذلك.

فلماذا تحمل مذلة الانتظار والاستئذان. وهكذا من مظاهر النعرة التى كانت

تتملك نفوسهم. فقال جل شأنه إن تشريع الحكم للعموم على هذا الوجه خير لكم من عزة كاذبة تتمسكون بها.

فكما منعتم من الدخول على غيركم بلا إذن. منع غيركم من الدخول عليكم كذلك.

وما منكم من أحد إلا وهو عرضة لمثل هذا. وفيه استبقاء المودة. وعدم التأذى من زيارتكم. بخلاف ما لو كانت هجوما. فقد يكون قصدكم منها البر. فتنقلب إلى شر.

ويبن له أن ما فيه من عزة عائد على فهو من قومى.

وهذا الخطاب ليلاقى اعتراض المعترض.. فقد جاءه من ناحية العزة والحمية. فأجابه من ناحيتها أيضا. وهو أنه من قومه فيعتز به.. وإلا فقد حجبه لمصلحة العمل][1].

دروس من الآيات:

والآية الكريمة تعلمنا فى الذوق دروسا:

فهى تنهى عن دخول بيوت الآخرين حتى يتحقق شرطان:

أولهما: الاستئناس البصير بظروف البيت وأهله.

الثانى: التسليم على أهلها بعد اختيار الوقت المناسب. وإذا كنت أنت لا تنام فى الظهيرة.. ولا يتأثر مزاجك.. فغيرك إذا لم ينم اختل ميزانه الجسمى والفكرى..[2]

إنها بيوت ﴿غير بيوتكم..﴾ وإذن فكل ما فيها مختلف.. وينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار.

وإدراك هذه الفروق هى الاستئناس القاضى بتحسس أمزجة الناس.. ورصدها من بعيد حتى لا نعكر صفوها..

---

(١) من مقال للمرحوم الشيخ إبراهيم الجبالى بمجلة الأزهر.

(٢) كان لى صديق إذا نام فى القيلولة قام متعبا.. وإذا لم أنم أنا.. بقيت متعبًا !!

وتحقق هذه الشرطين خير لكم لتبقى علاقاتكم قوية مثمرة.

وربما غلب المضيف الحياء فسمح لك بالدخول.. لكنه. ومن ورائه أهله سيحتفظون بصورتك دائما في وضع لا تحسد عليه.. وخير لك أن تعود إلى فرصة أخرى.

وما أكثر الضيوف الذين يتذمرون لأنهم رجعوا بلا إذن. ولكن القرآن الكريم - حفاظا على الود - يلفت النظر بقوة لتقبل الرد الموجع بأعصاب من حديد.

إن المستنكفين من الناس إذا اعتادوا دخول دار بغير إذن.. حسبوا ذلك حقا مكتسبا لا يقبل الجدل.. فإذا لم يسمح لهم بعد ... وقيل: لا تدخلوا إلا بإذن.. يتأذون.. ثم ينقطعون عن زيارتك أصلا.. ولو دعوتهم.. إن بيوتهم تضيق بهم.. ويريدون أن يجعلوا من بيوت الآخرين فنادق على حساب أهلها.

وعلى هؤلاء جميعا يرد القرآن الكريم.. أخذا للمسلم بالأدب الإسلامى الرفيع.

الفصل الثالث
الحدود فى الاسلام
بين الوقاية والعلاج

تمهيد:

ما معنى أن مسلما.. يسرق أو يزنى؟

معناه: أنه أخل بكرامته كإنسان.. وأخل بالتزاماته كمسلم حين أخرجه الشيطان من عز الطاعة إلى ذل المعصية!

وما معنى أن يقام عليه الحد؟ :

معناه:

١ ـ إنصاف خصمه منه.. ليبقى موفور الكرامة مهاب الجانب محفوظ الحقوق.. لا يقترب من ساحته ظالم آثم.. وبذلك يسلم من الإحساس بالهوان. بقدر ما ينعكس ذلك عليه هيبة ووقارا يفرض احترامه على الآخرين.

٢ ـ ثم العودة بالعاصى نفسه إلى موقعه الكريم ليستأنف الحياة من جديد.. عزيزا كريما بعد أن يتطهر بالحد الشرعى.

وهذا بعض ما نفهمه من فلسفة الحدود فى الإسلام. التى لا يحجب جانبها الرادع ما تنطوى عليه من حفاظ على كرامة الإنسان حيثما كان.. ليبقى المجتمع المسلم كما أراد الله تعالى عزيزا كريما.

حلم البشرية:

فى نطاق الجهود الرامية إلى إسعاد الإنسان.. ذهب بعض العلماء إلى إمكان تحقيق هذا الحلم عن طريق ما سماه (بالمدينة الفاضلة).

مدينة يعيش فيها الإنسان بين مجتمع ملائكى.. بلا متاعب.. مع إخوة له على نفس السمت من الطهارة والنقاء.

وفشلت المحاولة من الناحية العملية: لأن الإنسان مخلوق له غرائزه

المتعددة.. والتى من شأنها التصادم والاختلاف.. ومن ثم تكون المدينة المزعومة حبرا على ورق.

ومن الناحية العلمية: فالفكرة مقضى عليها أيضا بالفشل:

ذلك بأن منهج الإصلاح هنا لم يأخذ طريقه العلمى.. حين بنى دستوره على جانب واحد من جوانب الإنسان.. هو الجانب الروحى السابح مع الخيال.. متجاهلا جانبه المادى بأشواقه وتطلعاته.. والذى يتطلب منهجا تربويا إصلاحيا حتى لا تكون هناك جريمة..

فإن هى وقعت. كان لها عقابها الصارم.

وهذا هو موقف السلام فى تربيته للإنسان:

فقبل أن يرصد للجريمة عقوبة.. كانت له خطة محكمة من شأنها أن تحول بين الإنسان وبين ارتكابها.. بالتقوى المانعة من الانحراف.

ومن ملامح هذه الخطة:

١ ـ تربية الفرد لإيجاد وازع خلقى فى نفسه.

٢ ـ إيجاد رأى عام ينفر من الجريمة.. بل وينكرها ويحاصر مرتكبها.

٣ ـ سد كل منافذ الفتنة لتظل نائمة.

٤ ـ تحديد العقوبات الرادعة والتى تنزل بالمخالف حين لا يكون علاج سواها.

وكثير من الدعاة اليوم يجهلون هذه الخطة المحكمة.. حين يركزون فقط على الجانب الجنائى منادين.. بقطع يد السارق.. ورجم الزانى.. دون إبراز المنهج الإسلامى المتكامل هنا. والذى كان العقاب آخر مراحله.. بينما يركز أعداء الإسلام على قطع يد السارق مثلا كوسيلة من وسائل التشويش عليه.. متجاهلين خطته الآنفة فى تربية النفوس.. زاعمين فى نفس الوقت تنكب الإسلام فى جانبه الجنائى: الأسلوب العلمى فى علاج الانحراف.

وإلى هؤلاء وأولئك.. إلى هؤلاء الذين يريدون :تجميد الاسلام فى بند من بنود دستوره.. وهؤلاء الذين يجردون الإسلام من طابعه العلمى التربوى.. نقدم

هذه الصفحات عتابا للأولين.. وحسابا للآخرين!

الوقاية قبل العلاج :

هناك مثل أجنبي يقول: اقتل اللص صغيرا.. قبل أن يكبر!

ومن معاني ذلك: أن تتخذ الوسائل الكفيلة والمبكرة لتربية الفرد على الزهد والعفة.. إلى جانب توفير كفايته من الطعام والأمن.. ليشب عن الطوق مستقيما في هذه التربية الصالحة.. وإلا.. فإن إهمال ذلك يرشحه ليكون عضوا فاسدا على نحو يصعب إصلاحه من بعد.

وما هذا المثل إلا صدى لمنهج الإسلام في تربية النفوس. وأخذها بالآداب العالية.. والتي تضع قدم الإنسان على سواء الصراط.. فلا تكون هناك جريمة وبالتالي.. لا يكون عقاب..

وإذا وقعت الجريمة فهي الاستثناء من القاعدة التي أحكم صنعها الإسلام. وهي النشاز الغريب في اللحن المتناسق.

وإذا نزل العقاب فإنما هو الكي.. يكون آخر الدواء. وإذا وقع بالمذنب ففي ظل من المعاني الإنسانية التي لا تتنكر للإنسان حتى في أحلك ساعات حياته.

في مجال الأسرة :

جاءت وصايا الإسلام جامعة على الخير.. مانعة من الانحراف. تسد كل ذريعة أمام المسلم حتى لا يتورط في ارتكاب جريمة الزنا أو مباشرة مبادئها.

هذه الجريمة التي لا يمكن أن يهجس بها خيال مادامت آداب الإسلام مرعية وأحكامه مصونة: **«لا تصوم المرأة وبعلها شاهد إلا بإذنه»**[1].

وإذا كان من حق الزوجة أن تصوم نافلة.. فإن من واجبها قبل ذلك أن تستأذن زوجها.. فربما كانت له رغبة.. وحينئذ فتحقيق رغبته مقدم في الرتبة.. من حيث كان سبيلا إلى قرار البيت. وعصمة الزوجين معا من الاختلاف.. ومن الانحراف!

---

(١) البخاري.: باب صوم المرأة.

وإن الإسلام ليقف بقوة إلى جانب الزوج تدعيما لحقه هنا.. وتقديرا لخطورة التهوين من شأنه من قبل الزوجة.

يقول ﷺ: «إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع»[1].

فانظر كيف يضج العالم العلوى بملائكته التى تنهض مدافعة عن الحق المضيع!

ولماذا؟ لخطورة الآثار المترتبة على هذا الإعراض:

فمن الممكن أن يلجأ الزوج تحت ضغط الحاجة إلى المعصية.. لا سيما فى زمان باتت أبوابها مفتحة بما استحدثت المدنية من أزياء وإغراء إلى جانب ما يعانيه من اختلال مزاج ينال الأسرة بأطفالها كفل منه.. فلا ينجو من آثاره كائن فى البيت..

ولأن الإسلام لا يريد للمرأة هذا الموقف فإن الحديث الشريف لا يطلق اللعن إطلاقا.. وإنما يحدده برجوعها إلى رشدها. «حتى ترجع»!

وإذا توالت تحذيرات الإسلام للمرأة فى مثل قوله تعالى:

﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية﴾[2].

وإذا توالت - أيضا - أوامره بغض البصر.. فإنه يأخذ فى الاعتبار وجود هذا التبرج بآثاره. ومن ثم فهو يلاحق الرجل بالوقاية فرارٌ من مضاعفاته النفسية والاجتماعية:

«إذا رأى الرجل امرأة فأعجبته فليأت أهله. فإن معها مثل الذى معها»[3].

فإذا امتحن الزوج فى الطريق بامرأة فرضت عليه زينتها وتصنعها.. أن ينظر إليها.. ولم تراع حق الله ولا حق الطريق فلم تصن كرامتها فى مشيها.. وحديثها. فليس هناك من سبيل لإخماد هذه الخواطر الفائرة إلا بالعودة إلى البيت!!

---

(١) البخارى.: كتاب النكاح.

(٢) الأحزاب. ٣٣

(٣) الترمذى. باب ما جاء فى الرجل يرى امرأة فتعجبه.

أولا: هجرة إلى واحة الأمن.. وفرارا من مواطن الإثارة.

وثانيا: اشباعا لرغبة حركتها نوايا السوء من خارج البيت..

وإلا.. فإن الاندماج فى جو الإثارة والاستسلام له واصل بالرجل.. وبالمرأة المتبرجة إلى ما لا تحمد عقباه!

والمطلوب: تحقيق الرغبة فى البيت عن طريق ما أحل الله لك.. فالمرأة هى المرأة.. والتى رأيتها فى الطريق محجوبة بهذا البهرج الملفت وما بهذا البهرج تتفاوت النساء.. وإنما يتفاضلن بما يحقق مقصود الزواج.. وهو واحد فى الاثنتين: فمع زوجك.. مثل الذى مع هذه الغريبة؟!!

وإنك لتلمح الأدب الإسلامى وهو يعبر عن المعانى بطريق غير مباشر.. إبقاء على جو العفة.. وذلك فى مثل قوله: أهله.. بدل زوجته و«**فان معها..**»

وكيف تبعد عن الخيال تصور الأسرار المصونة.. وما يفيد التعبير بالمثلية من دفع إلى الحلال.. ما دام الحرام لم يزد شيئا عنه..

ولا يغيب عن بال الزوجة النافرة أن الإسلام يعمل لحسابها هنا أيضا..: حين يزامل زوجها فى الطريق حتى لا يضل.. وحين يعود به إليها فى البيت..

ليبقى لها وحدها.. وما فى ذلك من صيانة لها وتكريم.

ولابد أن تدفع ثمن هذا التكريم وفاء لزوجها.. وصيانة لمجتمعها من التفسخ والانحراف..

ومن صور هذا الوفاء ألا تخرج من بيتها إلا بإذنه:

«إذا خرجت المرأة من بيتها، وزوجها كاره، لعنها كل ملك فى السماء، وكل شيء مرت عليه غير الإنس والجن حتى ترجع»[1].

إن التأبى على الزوج داخل البيت ـ كما قلنا ـ معصية لها عقابها من لعنة الملائكة..

---

(١) كشف الغمة للشعرانى.

لكن الخروج محادة لرجلها معصية أوسع انتشارا.. ولذلك فعقابها مكافئ لها لعنة يضج بها الشجر والحجر والإنس والجن!!

وما كان هذا العقاب إلا سدا للذرائع.. وتقديرا من المشرع الحكيم لنتائجه على الأسرة والمجتمع.

بل إن المرأة لو خرجت بإذنه.. فلا يحل لها إلا ومعها محرم:

«لا يحل لامرأة مسلمة تسافر مسيرة ليلة إلا ومعها رجل ذو حرمة منها»(١).

إن وجود المحرم مع المرأة فى هذا السفر الطويل:

أولا: مانع من خواطر السوء فيما يشبه الجو العائلى.. فنظرتها لأبيها.. أو أخيها لا تسمح بخواطر من هذا النوع.

ثانيا: عاصم للمرأة من ذئاب البشر. بخلاف الوحدة التى لا تأمن معها غوائل السوء.. ولا تأمن معها ثورة الخواطر فى وحشة قد تزل فيها الأقدام.. وكل رجل.. وكل امرأة تخرج على هذه الضوابط فليس جديرا.. وليست جديرة بشرف الانتساب إلى أمة الإسلام..

«من أفسد امرأة على زوجها فليس منا»(٢).

إن الفساد كما يشير الحديث ليس من طبيعة المرأة المسلمة.. ولكنه دخيل على فطرتها حين يراد بها السوء من رجل غريب. (أفسد..) والفعل بهمزة التعدية.. وإن شئت فقل: همزة العدوان!

وعلى الذين يدنسون هذه الفطرة.. أن يعزلوا أنفسهم فليسوا منا.. ولسنا منهم.. ويجيء الحديث عن الزوجة بعنوان «المرأة» كأنما هى بعنوان الزوجية غير قابلة للفساد.. الذى إن هى رضيت به لم تكن جديرة بشرف الزوجة! ولا يعنى افساد المرأة فقط سقوطها فى حمأة الفاحشة.. بل كل ما يؤدى إلى هذه النهاية المؤسفة إفساد:

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المبسوط. كتاب الاستحسان.

الكلمة الخبيثة.. الإغراء الكاذب... الأمانى المعسولة..

وتتحمل المرأة مسؤولية تساوى ذلك إذا أعانت على إفساد الرجال بالتبرج.. والكلمة المنكرة.. واللحن الطرى!!

ولا يعفى الإسلام من فسدت امرأته من مسؤولية إرخاء الحبل لها.. وتعريضها بذلك لمواطن السوء.

ولا ينجو من الوزر هؤلاء الذين يدنسونها ولو كانوا جاهلين.. ولو ارتكبوا من الأعمال والأوضاع ما لا يكاد يخطر على البال خطره:

رأى الرسول - ﷺ - راعى إبل الصدقة يجلس فى الشمس عريانا.. فعزله.. قال: «**لا يعمل لنا من لا حياء له**»[1].

ومع أن راعى الإبل يجلس عريانا فى أرض مكشوفة يمكن معها الستر لو لاح قادم من بعيد..

ومع أنه وحيد فى صحبة إبل لا يعنيها حلال أو حرام.. إلا أن الرسول، يضع قواعد السلوك.. فى منطق الإسلام.. فالخلاعة.. والعرى.. من حيث هما جريمة.. ولو كنت جالسا فى الظلام!!

وهنا مفرق الطريق بين الإسلام وغيره من مذاهب الأرض:

ففى المذاهب الأرضية: ليس الزنا بذاته جريمة.. ولكنه إذا وقع بالإكراه فالعقاب على الإكراه.. وليس على الزنا!!

أما الزنا فى الإسلام فهو جريمة بذاته.. ويظل الإسلام دائما وفيا لمبدئه القاضى بتنظيف البيئة حتى مما لا يكاد يخطر على البال ضرره.. وقاية من الفتنة وابتغاء صياغة مجتمع بلا مشكلات.. وفى سبيل ذلك تتبع أسباب الفتنة فى مظانها الدقيقة فحذر منها.. وقد بلغ هذا الاستقصاء حدا دعا فيه - إذا سها الإمام فى الصلاة - أن يقول الرجال: سبحان الله!.. وأن تصفق المرأة.. ولا تقول.. فرارا من فتنة الصوت!!

---

(١) المبسوط. كتاب الاستحسان.

أى أن الاحتياط يبلغ مداه حتى فى الصلاة المانعة من خواطر السوء بين يدى الحق سبحانه..

وحتى بالنسبة لزوجاته ﷺ فإنه تعالى يضاعف مسؤولياتهن إزاء فتنة ينبغى أن تظل نائمة: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾(1).

أى أن طهارة زوجاته ﷺ وإن كانت من الضرورات المسلمة.. إلا أن الحذر من خطأ الغير لا يغيب عن البال!

فضلا عن أن تربع زوجاته ﷺ سنام الكمال يرسم النموذج الكامل للمرأة فى عفتها.. والذى تتملاه النساء غيرهن عبر التاريخ فيحاولن الصعود بدل أن يبدد الجهد والوقت فى محاولات الهبوط!

كل هذه الصور من الاحتياط تؤكد أن الإسلام يقى الإنسان مصارع السوء.. وقاية مؤسسة على معرفة تامة بطبيعة الإنسان وميوله ورغباته.. وإقامة حد الزنى لا يأتى إلا عند الضرورة القصوى.. وبعد أن يستنفد الإسلام كل الأساليب العلمية التربوية حتى لا يواقعها الإنسان.. ولا يقاربها.

فإذا شهد الجريمة أربعة شهود بمواصفات دقيقة.. حق العقاب.. لأن ذلك يعنى أن الجريمة وقعت فى عرض الطريق.. ولابد حينئذ من الضرب بيد من حديد على رقاب أناس لا يستحقون الحياة بلا ذرة من حياء.

* * *

---

(1) الأحزاب : ٣٢ .

تحريم الخمر والربا

وفيما يتعلق بتحريم الخمر والربا نرى المنهج الحكيم المساوق لفطرة الإنسان.. وتقدير ظروفه الغريزية والاجتماعية.. لقد سلك القرآن مع الإنسان مسلك الصرامة فيما يتعلق بإنشاء العقيدة الإيمانية فى نفسه.. فلا مساومة فيها.. ولا أنصاف حلول.. فإما إيمان.. أو لا إيمان.. لأن العقيدة هى الركيزة الأساسية.. وعنها تنبثق كل الاتجاهات الإنسانية. فلابد أن تكون راسخة فى ضمير الإنسان.. حتى يمكن أن يشاد فوقها بناؤه.

أما ما يتصل بعادات الانسان فقد اختلف أسلوبه حين تدرج معه فى التحريم فرارا من رد الفعل المعاكس.

تحريم الخمر:

جاء تحريم الخمر على مراحل بدأت بقوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[1].

فمن المسلم به أن فى الخمر منافع.. ومن المسلم به أيضا أن فيها إثما.. وأن الإثم فيها أكبر من المنافع..

فإذا ما وازن العاقل بين ربحه وخسارته فلا شك أنه نازع إلى التخلص منها بالعزم إن لم يكن بالفعل الناجز..

ثم تأتى الخطة العملية التى تعين الشارب على الارتفاع فوق مستوى العادة.. والتخلص من عبوديتها.

---

(١) البقرة : ٢١٩.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[1].

فأذا علمنا أن الصلوات الخمس موزعة على اليوم كله. . . وأن شرب الخمر بعد صلاة الظهر مثلا يدخل بالشارب فى وقت العصر وهو مازال فاقد الوعى. . تبين لنا أن الاختيار المتوقع هو الإقلاع عنها حفاظا على مواقيت الصلاة أن يضيعها السكر.

وفى هذه اللحظة التى يوشك فيها الإنسان أن يتخذ قراره بالإقلاع عن الشرب. . وإبعادا له عن إغراء أصحاب ما زالوا يعاقرونها. . يجيئه النذير المدمدم ليتشله من الموج الغالب إلى الشاطئ الآمن:

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[2].

تحريم الربا :

لأن حب المال غريزة لدى الإنسان. . فإن القرآن لا ينتزع هذا الحب انتزاعا وانما هو يوجه ويرشد وصولا به إلى التصرف العاقل مع تقديره للعاطفة الإنسانية هنا:

يقول سبحانه: ﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾[3].

فالآية الكريمة تهيئ ذهن الإنسان بادئ ذى بدء. . لينأى بنفسه عن أكل الحرام. . . وإذن فهو مستعد لتلقى أوامر الله بالقبول فى هذا الباب. .

وحين يجيئه الأمر الإلهى عن الربا المضاعف:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾[4].

فإن نفسه تكون مستعدة للالتزام بأمر الله. . ومهيأة للتخلص نهائيا من هذه

---

(١) النساء: ٤٣. (٢) المائدة ٩٠، ٩١.

(٣) البقرة: ١٨٨. (٤) آل عمران: ١٣٠ .

العادة الذميمة.

وفى هذه اللحظة تجيئه صورة المرابى كما يصفها القرآن الكريم عابسة منكرة منفرة: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[1].

ويحين الوقت.. للضربة الأخيرة فى اللحظة المناسبة.. فيأمر الحق سبحانه بالتخلص من الربا نهائيا.. كثيره وقليله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

حد السرقة:

قال بعض العارفين: جاءنا رجل - يعنى الرسول - مملق - أى فقير - فأغنانا! فلما سئل: كيف يكون فقيرا ويغنيكم قال: حث الغنى على الصدقة.. كما حث الفقير على العمل.. فاستغنى الاثنان معا!

وفى الحث على العمل نقرأ قوله ﷺ: «**ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده**»[3].

والخيرية هنا مردودة إلى حفظ كرامة الإنسان بالعمل حتى لا يعرض نفسه لمهانة السؤال:

«**لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه**»[4].

بلإن الصدقة لا تحل لمن كانت له قدرة على العمل: «**لا تحل الصدق لغنى. ولا لذى مرة سوى**»[5].

ومن ناحية أخرى فقد كان يحرم على الأغنياء أن يعرضوا أهليهم لذل الحاجة فى حياتهم أو بعد مماتهم.. سواء أكان ذلك عن طريق الإسراف أو الوصية بالثروة كلها..

---

(١) البقرة: ٢٧٥ (٢) البقرة. ٢٧٨. (٣) المرجع السابق.
(٤) الموضع السابق (٥) ابن ماجه: كتاب الزكاة.

وقد قال لمن يريد التصدق بماله كله: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير»[1].

ومع أن التيسير على الفقراء مطلب إسلامى إلا أن ذلك لا يتم على حساب أولاد الغنى الذى يريد حرمانهم منه:

«إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»[2].

وإنه ليحذر الغنى من مغبة التصدق بكل المال.. ثم القعود لسؤال الناس. مفضلا أن يبقى لنفسه وذويه بقية تحفظ عليه كرامته:

«يأتى أحدكم بما يملك فيقول: هذه صدقة.. يقعد يستكف الناس. خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى»[3].

ويعنى ذلك كله:

١ ـ زيادة النتاج بالعمل..

٢ ـ ترشيد الاستهلاك والإنفاق حفظا للتوازن بين صفوف الجماعة..

٣ ـ توجيه الفائض لخير المجتمع وتحريم كنزه..

وتبرز صورة المجتمع الفاضل فى ظل الإسلام.. يتواصى بالخير. ويتعاون على البر والتقوى..

ولا ظل فيه لجريمة.. وإذا وقعت فهى الندرة التى يمليها الشذوذ..

ويهمنا هنا أن نبين أن ما شرعه الإسلام من تحريض على العمل.. وعلى بذل الفائض.. ثم على رعاية العاجز عن الكسب.. كل أولئك يطهر من ناحية قلب الواجد.. ويعوده على فعل الخير.. بقدر ما يشعر الفاقد بالأخوة الإنسانية تظله.. عن طريق هذا العطاء المبذول.. والذى لا يتم استجداء.. وإنما هو ﴿حق معلوم﴾ يكتسبه المحتاج بجبهة عالية. وإذا كانت الفلسفة الشيوعية تعتمد فى أصولها على إثارة الفقراء ليتحرشوا بالأغنياء سطوا على أموالهم... فإن للإسلام أسلوبه الفذ. والذى يعود بالمال إنفاقا على من لا مال له... وبالقدرة المدخرة قوة

---

(١) البخارى: كتاب الزكاة.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الوصية.

(٣) أبو داود: كتاب الزكاة.

لمن لا ظهر له. . . وإنه ليستثمر بذلك عواطف الخير لدى الطرفين. . الواجدين والفاقدين معا. . فلا يكون هناك صدام. . ولا ما يسمى بصراع الطبقات. .

يقول الرازى: [إن النفس الناطقة ـ يعنى التى تحقق إنسانية الإنسان ـ لها قوتان: نظرية وعملية:

فالقوة النظرية كمالها فى التعظيم لأمر الله. والقوة العملية كمالها فى الشفقة على خلق الله. فأوجب الله الزكاة ليحصل لجوهر الروح هذا الكمال وهو اتصافه بكونه محسنا إلى الخلق ساعيا فى إيصال الخيرات إليهم. رافعا للآفات عنهم][1].

وسوف يلاقى من وراء إحسانه هذا مودة الفقير. .

يقول الرازى أيضا: [إن كثرة المال توجب شدة القوة. وكمال القدرة. . . وتزايد المال يوجب تزايد القدرة. . . وتزايد القدرة يوجب تزايد الإلتذاذ بتلك القدرة. . . وتزايد اللذات يدعو الإنسان إلى أن يسعى فى تحصيل المال الذى صار سببا لحصول هذه اللذات المتزايدة.

وبهذا الطريق تسير المسألة مسألة الدور: لأنه إذا بالغ فى السعى ازداد المال. . . وذلك يوجب زيادة القدرة. . . وهو يوجب زيادة اللذة. وهو يحمل الإنسان على أن يزيد فى طلب المال.

ولما صارت المسألة مسألة الدور. . لم يظهر لها مقطع ولا آخر. فأثبت الشرع لها مقطعا آخرا:

وهو أنه أوجب على صاحبه صرف طائفة من تلك الأموال إلى الإنفاق فى طلب مرضاة الله تعالى. . . ليصرف النفس عن ذلك الطريق الظلمانى الذى لا آخر له. . ويتوجه إلى عالم عبودية الله وطلب رضوانه][2].

وإذا كانت الشيوعية تعتبر إيقاد نيران العداوة عملا مشروعا بين الفقراء والأغنياء فإن الإسلام ـ بالزكاة ـ له أسلوبه الجامع للطرفين على معانى الود والوفاء:

---

(١) التفسير الكبير جـ١٦، ص١٠١.

(٢) المرجع السابق .

والزكاة تربط بين الغنى ومجتمعه برباط متين: سداه المحبة ولحمته الإخاء والتعاون. . . فإن الناس إذا علموا فى الإنسان رغبته فى نفعهم وسعيه فى جلب الخير لهم. ودفع الضير عنهم. . . أحبوه بالطبع. ومالت نفوسهم إليه لا محالة. . على ما جاء فى الأثر.

«جبلت النفوس على حب من أحسن إليها وبغض من أساء اليها»(1).

فالفقراء إذا علموا أن الرجل الغنى يصرف إليهم طائفة من ماله. وأنه كلما كان ماله أكثر كان الذى يصرفه إليهم من ذلك المال أكثر أمدوه بالدعاء والهمة.

وللقلوب آثار. . . وللأرواح حرارة. . فصارت تلك الدعوات سببا لبقاء ذلك الإنسان فى الخير الخصيب. كما قال الرازى وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾(2).

ويقول عليه الصلاة والسلام: **«حصنوا أموالكم بالزكاة»**(3).

[ويشير الامام الرازى إلى المعنى الدقيق من وراء هذا الأسلوب النبوى الحكيم. . فى قوله: ان الاستغناء عن الشيء أعظم من الاستغناء بالشيء:

فإن الاستغناء بالشيء يوجب الاحتياج إليه. إلا أنه يتوسل به إلى الاستغناء عن غيره. فأما الاستغناء عن الشيء فهو الغنى التام.

ولذلك فإن الاستغناء عن الشيء صفة الحق. . . والاستغناء بالشيء صفة الخلق.

فالله سبحانه لما أعطى بعض عبيده أموالا كثيرة فقد رزقه نصيبا وافرا من باب الاستغناء بالشيء.

فإذا أمره بالزكاة كان المقصود أن ينقله من درجة الاستغناء بالشيء إلى المقام الذى هو أعلى منه وأشرف منه وهو: الاستغناء عن الشيء](4).

---

(1) رواه ابن عدى فى الكامل. وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعود مرفوعا بإسناد ضعيف بل قيل موضوع.

(2) الرعد: 17. (3) رواه أبو داود فى المراسيل ورواه الطبرانى والبيهقى.

(4) الزكاة للقرضاوى ص 862 ـ 867.

التوبـة:

وعلى ما فى العقوبة من صرامة فهى جزء من العلاج يراد به أن الفرصة مواتية أمام الجانى ليستأنف الحياة مع إخوته.. بلا حساسية.. وبلا ملاحقة له باللوم على ما قد فرط منه.. فنحن مأمورون بنسيان الماضى.. والتعامل مع المخطئ بأسلوب هو الذى يختاره لنفسه... متى تاب وصحت توبته:

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

فعزة الله تعالى وحكمته قضت بضرورة إقامة الحد بلا شفاعة فيه ولا تردد.. وكان ذلك عدلا يشفى الله به صدور الذين أضيروا بالسرقة نقصا فى المال وتهديدا للأمن.. ونكالا يقف زاجرا لكل من تسول له نفسه أن يكرر التجربة من بعد..

ولا تنتهى الرواية حينئذ.. بل إن رحمة الله قريب من التائب المُصلح لِمَا أفسد المستأنف حياته مع اخوته المؤمنين على طاعة الله سبحانه.. وهذه إشارة للمجتمع الإسلامى ألا تأخذه فى الحدود لومة لائم..

وبنفس القوة أن يفتح صدره للعائد التائب من ذنبه.. فلم يكن استئصال الجانى هدفا من أهداف الإسلام.. ولكنه التأديب يراد به تهذيب الغرائز وتطويعها وإعلائها.

وإذا أريد بالقطع الجزاء عدلا.. فقد كان هذا العدل إخافة للغير حتى لا يواقع السرقة .. ويظل المجتمع آمنا مطمئنا.. بلا سرقة.. وبلا عقوبة.

وفتح باب التوبة أمام المذنب - مهما كان ذنبه - ميزة الإسلام الكبرى.. الإسلام الذى يتعامل مع الإنسان فى لحظات ضعفه بما ينتشله من وهدة اليأس.. ليخلق من جديد عضوا نافعا لدينه ومجتمعه..

ولقد نشطت جهود العلماء أخيرا فى محاولاتها المكرورة لعلاج الأمراض

---

(١) المائدة: ٣٨، ٣٩.

العصبية على أساس من الاعتراف بالذنب أمام طبيب الأمراض النفسية.. ليصل المريض بهذا الاعتراف إلى حالة من القرار يهدأ فيها الضمير ويكف عن اللوم.. فيصلح بال المريض.. وتزايله عته[1] ولم تحقق هذه المحاولات أهدافها . ولن تحقق.. ما دامت تتم خارج نطاق المنهج الإلهى.

هذا المنهج الذى لا يشكل سيفا مصلتا على رقاب المذنبين.. ولكنه يزاملهم بالترغيب ليعود إليهم رشدهم الغائب.. وتدب فى جسومهم العافية الهامدة..

وأين هذا العلاج من التوبة النصوح يقبلها الله تعالى من عبده الأواب إليه؟[2] إنك تذهب إلى طبيب هو بشر مثلك.. محمل بهموم يبحث لها عن ذى مروءة يسليه.. أو يتوجع!

ثم إنك تلح فى طلبه.. وتقدم له أجرا.. ليحدد لك موعدا.. ومع ذلك كله فعلمه القاصر.. وقدرته المحدودة.. كل ذلك مانع من كشف العلة!؟

ولكن الحق سبحانه وتعالى ﴿يقبل التوبة عن عباده﴾ بكل مضاعفاتها:

ان الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[3].

إنه سبحانه يستدعيك لتقبل عليه.. ويستدعيك متحببا متلطفا ﴿يا عبادى..﴾.

يدعوك.. وأنت فى أحرج لحظات حياتك.. حين تئن تحت وطأة ركام من الخطايا. ﴿الذين أسرفوا﴾

يدعوك أن تجدد الثقة به.. ولا تقطع حبال المودة باليأس القاتل.. ﴿لا

---

(١) كما هو رأى فرويد فى التحليل النفسى.

(٢) الفكرة للدكتور أحمد شوقى إبراهيم - مجلة الوعى العدد ٢٠٢.

(٣) الزمر: ٥٣، ٥٤.

﴿لاتقنطوا من رحمة الله﴾

فليس لهذا القنوط ما يسوغه:

فمهما كانت ذنوبك كثيرة.. ومهما كانت أحجامها كبيرة.. فهو يغفرها جميعا ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾ إنه قادر..

ومع ذلك فهو عليم.. لا تخفى عليه تعالى ذنوبك وهو لا يريد منك إلا التوبة.. ولا مجال للإحراج بالإفصاح عنها..

ولا مجال أيضا للكتمان فهو سبحانه أدرى منك بها.. ولا يكلفك مالا ثمينا للفحص أو الدواء.. وإنما يطالبك بكلمة مخلصة تعبر بها عن أشواق قلبك إلى الخلاص!

وتشهد الآيات القرآنية بصحة ما نقرره من أن العقوبة فى الإسلام لايراد بها التشهير بقدر ما يؤمل من ورائها زجر يفطم العاصى عن مواقعة المعصية مع غيره ممن تحدثهم أنفسهم بتقليده فى انحرافه..

إن لحظة إقامة الحد جزء من منهج الإسلام فى الإصلاح وليست إجراء انتقاميا يراد به تدمير حياة العاصى..

يقول الحق سبحانه: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وتطالعنا الآية الكريمة بأمور:

١ ـ تقديم الزانية فى الذكر على الزانى تنبيها على أن نقطة الانحراف تبدأ عند الأنثى.

يقول أبو السعود فى تفسيره للآية الكريمة:

(وتقديما على الزانى لأنها الأصل فى الفعل.. لكون الداعية فيها أوفر. ولولا

---

(١) التوبة : ٢ .

تمكينها منه لم يقع).

وهذا يفرض على المجتمع الإسلامى سد الذرائع فى هذا المجال بصيانة الأنثى.. عن التبرج. وكل ما يفتح إلى الفتنة بابا. ليكون الطهر والعفاف سمة المجتمع الغالية.. فلا تحدث نفس صاحبها بسوء.

٢ ـ التحذير من الرأفة بالمذنب ـ والرأفة: الرحمة الشديدة ـ أى لا ينبغى أن تغلبنا الرحمة الشديدة الداعية إلى التفريط أو التسامح فى إقامة الحد.. واستشعار أننا مؤمنون دافع لنا إلى إقامة الحد.. وتذكرنا لليوم الآخر وما فيه من عقاب.. زاجر لنا عن المسامحة أو التعطيل فرارا من العقاب المرصود هناك للمتساهلين فى دين الله.

٣ ـ بينما يتضح واجب الجماعة المسلمة الصارم هكذا.. تتكفل الآية الكريمة بحملة أخرى داخل نفس المذنب.. حتى تكون هذه آخر ذنوبه.. وحتى لا يتورط مسلم آخر فى مثل ما تورط هو فيه: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(وانما خص المؤمنين بالحضور لأن ذلك أفضح. والفاسق بين صلحاء قومه أخجل)[1].

أى أن رؤية المذنب جماعة المسلمين من حوله من شأنها إثارة بقية من الحياء فى نفسه تحمله على توبة يفر بها من مثل هذا الموقف القاسى..

ومعنى هذا: أن العذاب هنا ليس مقصودا لذاته.. إنه عذاب وليس تعذيبا.. وهو آخر الدواء.. وإلى جانبه ـ بل ومن قبله ـ فإن للإسلام مثل هذا الجزاء وهو زيادة التنكيل بحضور الصلحاء ليتم المراد وهو التوبة النصوح..

يقول الأستاذ سيد قطب:

[فهذه الرواية تفيد تحريم نكاح المؤمن الزانية ما لم تتب... ونكاح المؤمنة للزانى كذلك. وهو ما أخذ به الإمام أحمد. ورأى غيره غير رأيه. والمسألة خلافية تطلب فى كتب الفقه.

---

(١) حاشية الجمل.

وعلى أية حال: فهى فعلة تعزل فاعلها عن الجماعة المسلمة.

وتقطع ما بينهما وبينه من روابط.

وهذه وحدها عقوبة اجتماعية أليمة كعقوبة الجلد أو أشد وقعا!][1].

وفى هذا المعنى يقول أبو السعود: (فإن التفضيح قد ينكل أكثر ما ينكل التعذيب).

وصدق الحق سبحانه حين يقول:

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾[2].

إن الاسلام وهو يضع هذه العقوبات الصارمة الحاسمة لتلك الفعلة المستنكرة الشائنة لم يكن يغفل الدوافع الفطرية أو يحاربها. فالإسلام يقدر أنه لا حيلة للبشر فى دفع هذه الميول، ولا خير لهم فى كبتها أو قتلها. ولم يكن يحاول أن يوقف الوظائف الطبيعية التى ركبها الله فى كيانهم، وجعلها جزءا من ناموس الحياة الأكبر، يؤدى إلى غايته من امتداد الحياة، وعمارة الأرض، التى استخلف فيها هذا الانسان.

إنما أراد الإسلام محاربة الحيوانية التى لا تفرق بين جسد وجسد، أولا تهدف إلى إقامة بيت، وبناء عش، وإنشاء حياة مشتركة، لا تنتهى بانتهاء اللحظة الجسدية الغليظة! وأن يقيم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية، التى تجعل من التقاء جسدين نفسين وقلبين وروحين، وبتعبير شامل التقاء إنسانين، تربط بينهما حياة مشتركة، وآمال مشتركة، وآلام مشتركة ومستقبل مشترك، يلتقى فى الذرية المرتقبة، ويتقابل فى الجيل الجديد الذى ينشأ فى العش المشترك، الذى يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان.

من هنا شدد الإسلام فى عقوبة الزنا بوصفة نكسة حيوانية، تذهب بكل هذه المعانى، وتطيح بكل هذه الأهداف، وترد الكائن الإنسانى مسخا حيوانيا، لا يفرق بين أنثى وأنثى، ولا بين ذكر وذكر. مسخا كل همه إرواء جوعة اللحم والدم فى

---

(١) فى ظلال القرآن. (٢) النساء: ١٤٧.

لحظة عابرة. فإن فرق وميز فليس وراء اللذة بناء فى الحياة، وليس وراءها عمارة فى الأرض، وليس وراءها نتاج ولا إرادة إنتاج! بل ليس وراءها عاطفة حقيقية راقية؛ لأن العاطفة تحمل طابع الاستمرار. وهذا ما يفرقها من الانفعال المنفرد المتقطع، الذى يحسبه الكثيرون عاطفة يتغنون بها، وإنما هى انفعال حيوانى يتزيا بزى العاطفة الإنسانية فى بعض الأحيان.

إن الإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها، إنما ينظمها ويطهرها ويرفعها عن المستوى الحيوانى، ويرقيها حتى تصبح المحور الذى يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية. فأما الزنا - وبخاصة البغاء - فيجرد هذا الميل الفطرى من كل الرفرفات الروحية، والأشواق العلوية، ومن كل الآداب التى تجمعت حول الجنس فى تاريخ البشرية الطويل، ويبديه عاريا غليظا قذرا كما هو فى الحيوان، بل أشد غلظا من الحيوان. ذلك أن كثيرا من أزواج الحيوان والطير تعيش متلازمة، فى حياة زوجية منظمة، بعيدة عن الفوضى الجنسية التى يعيشها الزنا - وبخاصة البغاء - فى بعض بيئات الإنسان!

دفع هذه النكسة عن الإنسان هو الذى جعل الإسلام يشدد ذلك التشديد فى عقوبة الزنا.. ذلك إلى الأضرار الاجتماعية التى تعارف الناس على أن يذكروها عند الكلام عن هذه الجريمة، من اختلاط الأنساب، وإثارة الأحقاد، وتهديد البيوت الآمنة المطمئنة.. وكل واحد من هذه الأسباب يكفى لتشديد العقوبة. ولكن السبب الأول وهو دفع النكسة الحيوانية عن الفطرة البشرية، ووقاية الآداب الإنسانية التى تجمعت حول الجنس، والمحافظة على أهداف الحياة العليا من الحياة الزوجية المشتركة القائمة على أساس الدوام والامتداد.. هذا السبب هو الأهم فى اعتقادى. وهو الجامع لكل الأسباب الفرعية الأخرى.

على أن الإسلام لا يشدد فى العقوبة هذا التشديد إلا بعد تحقيق الضمانات الوقائية المانعة وقوع الفعل، ومن توقيع العقوبة إلا فى الحالات الثابتة التى لا شبهة فيها فالإسلام منهاج حياة متكامل، لا يقوم على العقوبة، إنما يقوم على توفير أسباب الحياة النظيفة. ثم يعاقب بعد ذلك من يدع الأخذ بهذه الأسباب الميسرة ويتمرغ فى الوحل طائعا غير مضطر.

وفى هذه السورة نماذج من هذه الضمانات الوقائية الكثيرة ستأتى فى موضعها من السياق.. فإذا وقعت الجريمة بعد هذا كله فهو يدرأ الحد ما كان هناك مخرج. ومنه لقوله ﷺ -:

«ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الامام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة» لذلك يطلب شهادة أربعة عدول يقرون برؤية الفعل. أو اعترافا لا شبهة فى صحته.

وقد يظن أن العقوبة إذن وهمية لا تردع أحدا، لأنها غير قابلة للتطبيق ولكن الإسلام ـ كما ذكرنا ـ لا يقيم بناءه على العقوبة، بل على الوقاية من الأسباب الدافعة إلى الجريمة، وعلى تهذيب النفوس، وتطهير الضمائر، وعلى الحساسية التي يثيرها فى القلوب، فتتحرج من الإقدام على جريمة تقطع ما بين فاعلها وبين الجماعة المسلمة من وشيجة. ولا يعاقب إلا المتبجحين بالجريمة، الذين يرتكبونها بطريقة فاضحة مستهترة فيراها الشهود.. أو الذين يرغبون فى التطهر بإقامة الحد عليهم كما وقع لماعز ولصاحبته الغامدية. وقد جاء كل منهما يطلب من النبى ـ ﷺ ـ أن يطهره بالحد، ويلح فى ذلك، على الرغم من إعراض النبى مرارا حتى بلغ الإقرار أربع مرات. ولم يعد بد من إقامة الحد، لأنه بلغ إلى الرسول بصفة مستيقنة لا شبهة فيها. والرسول ﷺ ـ يقول: **«تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغنى من حد فقد وجب»**(١).

فإذا وقع اليقين، وبلغ الأمر إلى الحاكم، فقد وجب الحد ولا هوادة، ولا رأفة فى دين الله. فالرأفة بالزناة الجناة حينئذ هى قسوة على الجماعة وعلى الآداب الإنسانية وعلى الضمير البشرى. وهى رأفة مصطنعة. فالله أرأف بعباده. وقد اختار لهم **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾** والله أعلم بمصالح العباد، وأعرف بطبائعهم، فليس لمتشدق أن يتحدث عن قسوة العقوبة الظاهرية، فهى أرأف مما ينتظر الجماعة التى يشيع فيها الزنا، وتفسد فيها الفطرة، وترتكس فى الحمأة، وتنتكس إلى درك البهيمة الأولى.

والتشديد فى عقوبة الزنا لا يغنى وحده فى صيانة حياة الجماعة، وتطهير الجو

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الحدود باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطات.

الذى تعيش فيه. والإسلام لا يعتمد على العقوبة فى إنشاء الحياة النظيفة ـ كما قلنا ـ إنما يعتمد على الضمانات الوقائية وعلى تطهير جو الحياة كلها من رائحة الجريمة... لذلك يعاقب على جد الزنا بعزل الزناة عن جسم الأمة المسلمة. ثم مضى فى الطريق خطوة أخرى فى استبعاد ظل الجريمة من جو الجماعة فيعاقب على قذف المحصنات واتهامهن دون دليل أكيد:

﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون﴾..

إن ترك الألسنة تلقي التهم على المحصنات ـ وهن العفيفات الحرائر ثيبات أو أبكارا ـ بدون دليل قاطع، يترك المجال فسيحا لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئا بتلك التهمة النكراء، ثم يمضى آمنا! فتصبح الجماعة وتمسى، وإذا أعراضها مجرحة، وسمعتها ملوثة، وإذا كل فرد فيها متهم أو مهدد بالاتهام، وإذا كل زوج فيها شاك فى زوجه، وكل رجل فيها شاك فى أصله، وكل بيت فيها مهدد بالانهيار.. وهى حالة من الشك والقلق والريبة لا تطاق.

ذلك إلى أن إطراد سماع التهم يوحى إلى النفوس المتحرجة من ارتكاب الفعلة أن جو الجماعة كله ملوث، وأن الفعلة فيها شائعة، فيقدم عليها من كان يتحرج منها، وتهون فى حسه بشاعتها بكثرة تردادها، وشعوره بأن كثيرين غيره يأتونها!

ومن ثم لا تجدى عقوبة الزنا فى منع وقوعه، والجماعة تمسى وتصبح وهى تتنفس فى ذلك الجو الملوث الموحى بارتكاب الفحشاء.

لهذا وصيانة للأعراض من التهجم، وحماية لأصحابها من الآلام الفظيعة التى تصب عليهم.. شدد القرآن الكريم فى عقوبة القذف، فجعلها قريبة من عقوبة الزنا ثمانية جلدة.. مع إسقاط الشهادة، والجسم بالفسق.. والعقوبة الأولى جسدية. والثانية أدبية فى وسط الجماعة، ويكفى أن يهدر قول القاذف فلا يؤخذ له بشهادة وأن يسقط اعتباره بين الناس ويمشى بينهم متهما لا يوثق له بكلام! والثالثة دينية فهو منحرف عن الإيمان خارج عن طريقه المستقيم.. وذلك إلا أن يأتى القاذف بأربعة يشهدون برؤية الفعل، أو بثلاثة معه إن كان قد رآه.

فيكون قوله إذن صحيحا. ويوقع حد الزنا على صاحب الفعلة.

والجماعة المسلمة لا تخسر بالسكوت عن تهمة غير محققة كما تخسر بشيوع الاتهام والترخص فيه، وعدم التحرج من الإذاعة به، وتحريض الكثيرين من المتحرجين على ارتكاب الفعلة التى كانوا يستقذونها، ويظنونها ممنوعة فى الجماعة أو نادرة.

وذلك فوق الآلام الفظيعة التى تصيب الحرائر الشريفات والأحرار الشرفاء، وفوق الآثار التى تترتب عليها فى حياة الناس وطمأنينة البيوت.

وتظل العقوبات التى توقع على القاذف، بعد الحد مسلطة فوق رأسه، إلا أن يتوب:

﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾[1].

---

(١) فى ظلال القرآن.

مثل من حياة عمر

قال عمر رضى الله عنه لأحد ولاته الجدد: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟

فأجاب الوالى: أقطع يده.

فقال عمر: اذن.. إن جاءنى منهم جائع أو عاطل. فسوف يقطع عمر يدك!

ولم يشأ عمر رضى الله عنه أن يكون التوجيه صارما حاسما بلا مناقشة أو دراسة.. بل قدم للوالى أساس هذا الإنذار بلفت نظره إلى طبيعة الإنسان نفسه والمؤكدة أن النفس: إذا لم تشغلها بالحق، شغلتك بالباطل.. ولا ثالث بعدهما!

وذلك ما أشار إليه عمر حين قال للوالى الجديد:

(إن الله استخلفنا على عباده. لنسد جوعتهم. ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم. فاذا أعطيناهم هذه النعمة تقاضيناهم شكرها.

يا هذا: إن الله خلق الأيدى لتعمل. فإذا لم تجد فى الطاعة عملا.. التمست فى المعصية أعمالا.

فأشغلها بالطاعة. قبل أن تشغلك بالمعصية).

وإذن.. فوظيفة الوالى الأساسية نابعة من فهم طبيعة الإنسان.. وضرورة توفير العمل الصالح بين يديها لتملأ الفراغ.. فلا يكون هناك بال مشغول بترويع الآمنين..

فإذا استقام الفرد على الطريقة.. عصم نفسه وماله.. وإلا.. فإن سيف الحق قاطع! وماذا يكون الأسلوب العلمى إذا لم يكن هذا النهج صورته الكاملة؟

وهذه اللفتة العمرية مشمولة بالحقيقة القرآنية فى قوله تعالى: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[1].

---

(١) يونس : ٣٢.

وفى قول عمر رضى الله عنه نلمح نور فطنته الواصل إلى أدق خفايا النفس الإنسان بغية كشفها. . وعلاجها بالأسلوب العلمى:

فهو يخبر الوالى بأن النفس إذا لم نحملها على عمل فى باب الطاعة وجدتها فرصة تلتمس فيها أعمالا كثيرة فى دنيا المعاصى. .

ومعنى ذلك أنها جانحة بطبيعتها إلى السهل. . الممتع. . دون نظر إلى العواقب مما يضاعف مسؤولية الحاكم التربوية. .

وفى هذا المعنى يقول المرحوم عزام:

[الفكر لا يحد. واللسان لا يصمت. والجوارح لا تسكن. فإن لم تشغلها بالعظائم: شغلتك بالصغائر.

وإن لم تعملها فى الخير: عملت فى الشر.

إن فى النفس ركونا إلى اللذيذ والهين. ونفورا عن المكروه والشاق.

فارفع نفسك ما استطعت إلى النافع الشاق. ورضها وسسها على المكروه الأحسن. حتى تألف جلائل الأمور. وتطمح إلى معاليها.

وحتى تنفر عن كل دنية. وتربأ من كل صغيرة.

علمها التحليق: تكره الإسفاف. . . عرفها العز: تنفر من الذل. . . وأذقها اللذات الروحية العظيمة: تحقر اللذات الحسية الصغيرة][1].

وفى سيرة عمر رضى الله عنه مصداق ما نقول:

فقد كانت الوقاية فى منهجه قبل العلاج. . توفيرا للوقت والجهد والمال. . وقبل ذلك صيانة للإمكانات الإنسانية أن تستهلك فى صراع الشهوات:

فعندما سمع جدال بائعة اللبن مع ابنتها. . كان له إزاء هذا الموقف إجراءان:

١ ـ إجراء وقائى تمثل فى عرض البنت الأمينة على ولده عاصم ليتزوجها. . صيانة لأمانتها فى البيئة العمرية المؤمنة.

---

(١) عبد الوهاب عزام. مجلة المسلمون ١/ ٥٩٥.

٢ ـ وإجراء علاجى هو ذلك النذير لكل من تسول له نفسه أن يشوب اللبن بالماء . .

وعندما سمع امرأة ذات ليلة تصرخ الأشواق على لسانها لما غاب عنها زوجها فى الميدان . . وأحس فى نشيدها بالغريزة تستعلن وتتمرد . . فى محاولة للانحراف لولا الدين والكرامة . . كان له أيضا نفس الموقف .

١ ـ فقد أرسل إليها عجوزا . . لتؤنس وحدتها . . وتحبس مشاعر السوء فلا تؤرق بالها . . وكانت أيضا عجوزا لتذكرها بالآخرة . . لا شابة مثلها تؤجج النيران في صدرها؟!!

٢ ـ ثم أصدر أوامره ألا يغيب جندى فى الميدان بعد أخذ رأى ابنته فى مدى صبر المرأة على غياب زوجها . . حتى لا يتكرر الموقف . . وسد الأبواب الفتنة التى ينبغى أن تظل نائمة!

إن الشارع الإسلامى يقدر مواطن الضعف فى كيان الإنسان تقديرا ينتهى به إلى السلامة من العثار . .

وحتى إذا نزغه من الشيطان نزع فتورط فيما يوجب الحد . فإن صلة الجماعة المسلمة به تظل باقية لا تنقطع . . ويظل حقه فى العطف قائما : يخفف من وقع الصدمة . . ويعين الجرح النازف ليلتئم . . بما يفرضه الشارع لحظة العقاب وبعده من شفقة بالمذنب تنهض به مرة أخرى ليأخذ مكانه سليما معافى بين صفوف الجماعة المسلمة :

يقول الدكتور أحمد شوقى الفنجرى فى مقال له :

[رغم شده العقوبات فى الإسلام . إلا أنها تتميز عن العقوبات المدنية بما يصاحب التنفيذ من خلق اسلامى متسامح كريم .

فالإسلام ينص على عدم توجيه لفظ جارح أو سب إلى المذنب حتى أثناء توقيع العقوبة عليه .

فقد سمع رسول الله ﷺ خالد بن الوليد يسب المرأة الزانية فنهاه قائلا :

«مهلا يا خالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له»[1] .

فتوقيع الحد فى نظر الإسلام معناه: أن المذنب قد غفر له ذنبه، ومن حقه بل واجبه أن يستأنف مسيرته كعضو عامل فى جماعته نقى الصفحة طاهر الذيل. . إن ضرب الزانى بالحجر حدا. . مشروع. . أما توجيه لفظ جارح. . فلا!!

وأساس ذلك كله: أن الخصومة الناشئة بين السارق مثلا ومجتمعه قائمة لأنه سرق فإذا أقيم عليه الحد وتاب. . قبلت توبته. ومحى ذنبه. .

فلا خصومة قائمة بيننا وبين شخص السارق. . وإلا فهو أخونا. . وإنما الخصومة بيننا وبين فعله. . الذى إن تركه. . هو لم يزل ـ كما كان ـ أخانا!

إن الذين يحكمون بقسوة العقوبة هنا يخطئون. .

وقد نشأ خطؤهم من ناحيتين:

أولا: ركزوا ـ كما قلنا ـ على صورة الحد. . مع أنه مسبوق بمنهج إصلاحى شامل من شأنه فطم الناس عن التورط فى المعصية.

ثانيا: لأنهم فى حد السرقة مثلا ـ يقارنون بين سرقة البيضة وثمنها الباهظ وهو: قطع اليد!

ناسين أو متناسين أن القطع ملحوظ فيه أبعاد السرقة من الإخلال بالأمن العام. . وخلخلة الثقة بين أفراد المجتمع. بالإضافة إلى كونه عدوانا على حق الغير. . وأن المبادرة إلى العقاب تمنع المقطوع وغيره من تكرار السرقة مستقبلا. وفيه ما فيه من حماية أموال كثيرة. .

على أن منبع هذا التصور هو: فقدان الإيمان بالله عز وجل وما يمنع صاحبه من حس بصير بعواقب الأمور. . وحين يحرم الإنسان من ضياء الإيمان فإنه يتخبط فى ظلمات بعضها فوق بعض. . وتجىء أحكامه على الناس والأحداث صورة لهذا التخبط:

---

(١) رواه مسلم وأبو داود.

وعلى سبيل المثال: حكمت محكمة (أولى بيلى) على واحد من الشباب بالسجن اثنى عشر عاما، لأنه استخدم رأسه كسلاح عند سطوه على مكتب بريد جنوبى (لندن) وسرق ٥٢ ألف من الجنيهات الاسترلينية.

وكان الجانى قد اشتبك مع الحارس الليلى. وطرحه أرضا مغشيا عليه. بعد أن ضربه برأسه](١).

وفى دول الكتلة الشرقية يعدمون سارق المال العام..

وهذه القسوة المفرطة تعكس النظرة المادية إلى الناس:

ففى الوقت الذى تبلغ فيه القسوة قمتها فيما يتعلق بالمال.. يبلغ التساهل فى جرائم العرض الحضيض!؟

ويمكن للجرائم الخلقية أن ترتكب.. وفى عرض الطريق ما دام ذلك يتم برضا الطرفين.. دون حساب لآثار ذلك المسلك المعيب على المجتمع..

ذلك بأن القوم هناك فقدوا الإيمان كحاسة مميزة كاشفة:

فلأن أثر الضرب بارز يرى بالعين.. ولأن نتيجة السرقة مشاهدة ملموسة فإنهم يتساهلون فيها!!

وأمر آخر: إن رسوخ الإيمان فى القلب يعتبر حارسا من داخل الإنسان يمنعه من ارتكاب معاصى لا يعاقب عليها القانون..

هذه المعاصى المنتشرة هناك.. لأن الحياة تمضى فى حراسة القانون الأرضى والذى لا تطول يداه إلا ما كان ظاهرا.. وإذا كان لكل دين خلق.. فإن الحياء خلق الإسلام العاصم من الزلل حين لا يستطيع القانون فرض إرادته.. وإذا لم تستح فاصنع ما شئت..

وليس أمر فى المذاق من هذا الإفراط فى العقاب هناك إلا التفريط فيه عندنا! إن القوم فى غيبة الإيمان يحكمون بقسوة.. ونحو ـ غفلة الايمان ـ نحكم بهوادة!!

والإفراط كالتفريط كلاهما لا يعالج المشكلة إن لم يزدها تشابكا:

---

(١) الجمهورية ٢٣/٨/١٩٨١.

فقد سرق الشاب ـ توفيق ـ عشرين مليوناً من الجنيهات فى خمس سنوات فقط. . . ومضى ينفق ببذخ وإسراف على الملذات المحرمة طبعا وهو ينتظر أحكاما بالسجن تصل إلى ثلاثة آلاف سنة!![1] .

فانظر كيف سطا على حقوق الآلاف من البشر الكادحين. . ثم انظر مرة أخرى كيف ينشئ بهذه الثروة المغضبة أسبابا ويفتح إلى المعصية أبوابا. . لتدرك على الفور اتساع الجريمة وعمقها أيضا!

ثم لنتساءل: ما قيمة ثلاثة آلاف سنة سجن سوف يموت قبل أن يقضيها؟!!

ولو قطعنا يده لكنا منصفين:

أولاً: لأن القطع عند المائة الأولى مثلا سيمنعه سرقة الملايين من بعد. .

وثانيا: لأن هذا السارق تنكب الطريق إلى الحق. . فلم يسلك الطريق الشريف لكسب مشروع. . وتجاهل منهج الإسلام الواصل به إلى العمل الصالح حتما.

وأحيانا يخرج أحد الفنانين على النص المقرر فى المسرحية فيقاضيه مراقب المصنفات الفنية على هذا الخروج المتعمد. . وكان الأولى بنا أن نعاقب الذين يديرون أحداث القصة التى تزين الرذيلة. . وتحرك الأيدى بالعدوان على حقوق الآخرين.

وتبقى إنسانية المتهم مصونة. . فهو برىء حتى تثبت إدانته. . ودرء الحدود بالشبهات. . (أى: تفسير الشك لصالح المتهم)[1]. والخطأ فى العفو خير من الخطأ فى العقوبة. .

وفى الأثر: أن رجلا أتى النبى ﷺ وهو ممسك بتلابيب آخر وهو يقول:

يا رسول الله. إن هذا الرجل سرق منى كذا.

فقال ﷺ: **«لا تقل سرق. ولكن قل أخذ»** .

بل إن السارق مصاب فى حاجة إلى علاج. . كما أشارت إلى ذلك السنة المطهرة.

---

(١) نشرت الصحف قصته أخيرا.

(٢) كما هو مقرر فى القانون المدنى.

بل إن الجريمة تكون واقعة.. بل ويشاهدها الحاكم بنفسه.. ومع هذا تبقى حدود الكرامة الإنسانية مصونة.. ولا يدان العاصى هنا لبطلان إجراءات التفتيش[1].

سمع عمر رضى الله عنه أن جماعة من الشباب يسكرون... فتسلق عليهم الجدار.

فقال أحدهم: مكانك يا عمر!.. لقد جئنا بواحدة.. وجئتنا بثلاث:

لم تدخل من الباب. والله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات:١٢].

لم تدخل من الباب والله تعالى يقول: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة ١٨٩].

ودخلت بلا استئذان والله تعالى يقول: ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا ﴾ [النور: ٢٧].

ويعنى ذلك كله ـ بلغة العصر: بطلان إجراءات التفتيش!!

وقد اعتذر عمر رضى الله عنه وقال: لا تعودوا لمثلها!! وصار للبيوت حرمتها.

حتى الصحابة وهم من الطهر والشرف فى المكان البعيد كانوا يستأذنون.. بل يستأنسون..

وكانوا شاهدا على حرمة البيوت يؤكد لبعض من تأخذهم العزة بالإثم اليوم . حين لا يؤذن لهم بالدخول:

عن أبى صالح قال:

[استأذن عمرو بن العاص على فاطمة. فأذنت له. فقال: أثَمَّ على؟! قالوا: لا.. فرجع.

ثم استأذن عليها مرة أخرى فقال: ثَمَّ على؟ قالوا: نعم.

---

(١) الفكرة للدكتور أحمد شوقى الفنجرى مجلة الوعى الإسلامى ٢٠٢.

فدخل عليها. فقال له على: ما منعك أن تدخل حين لم تجدنى ههنا؟

قال: إن رسول الله ﷺ نهانا أن ندخل على المغيبات. «اللاتى غاب عنهن أزواجهن»[1].

وقد يكون البيت مشقوق السقف. مترنح الجدران.. خاليا من أدوات الرفاهية. ولكن.. ولكنك لا تتخطى عتبته إلا بإذن سيده ومالكه!

بل لا يسمح لك بالتلصص والنظر إليه.. حفاظا على كرامته.

روى البخارى:

عاد عبد الله بن مسعود رجلا. ومعه رجل من أصحابه.. فلما دخل الدار جعل صاحبه ينظر. فقال له: لو تفقأت عيناك.. كان خيرا لك!!

ويعنى ذلك: أن ذهاب البصر أقل مصيبة. وأخف ضررا من النظر فى البيوت.

لماذا؟

قال علماونا: لأنه فضول وتجسس.. وهو حرام.. ثم هو جرح لمشاعر المزور.. فربما كان فى بيته عورة لم يسترها.

وربما لا يكون فى بيته أثاث ولا فرش فيكون ذلك احتقارا له.

ولو حدث ذلك... لكان إحباطا لأثر الزيارة.. وهو إيناس المزور وجبر خاطره.

وليت شعرى: إذا كان الزوج ممنوعا من دخول بيته لو عاد ليلا وعليه أن يتريث.. فكيف بالغريب الفضولى؟!!

---

(١) مجمع الزوائد.

الفصل الرابع

تطبيقات عملية فى القضاء على الجريمة

المخزومية ... دروس وعبر

عن عائشة زوج النبى ﷺ:

أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت. فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟

فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله ﷺ؟ فكلمه أسامة.

فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع فى حد من حدود الله؟» .

ثم قام فخطب فقال: «أيها الناس: إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف. أقاموا عليه الحد وأيم الله: لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

وفى رواية: فتلون وجه رسول الله ﷺ .

وفى رواية: فقال أسامة: استغفر لى يا رسول الله .

وفى رواية فلما كان العشى قام ﷺ فاختطب .

وفى رواية: ثم أمر بتلك المرأة التى سرقت فقطعت يدها .

وفى رواية: قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد. وتزوجت. . . وكانت تأتينى بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ.

شرعت الحدود فى الإسلام للتهذيب لا للتعذيب.

وهى حدود: أعنى: لها حد مقدر من الحق تبارك وتعالى. .

وليست إلى واحد من البشر. . الذين لو ترك لهم تقديرهم. . لسالت الأرض دماء. . وأكواما من الضحايا والجماجم!

لماذا يقطع السارق؟

يقطع السارق.. ولا يقطع المختلس.. ولا الناهب ولا الغاصب فلماذا؟ مع أن النتيجة واحدة وهى ضياع المال؟

قال العلماء:

ما عدا السرقة من جرائم السلب:

أ ـ قليل بالنسبة إليها.

ب ـ يمكن استرجاعه.

ج ـ سهولة إقامة البينة عليه.

ومن ثم. رفع الأمر إلى القاضى ليحكم بما أنزل الله.

بخلاف السرقة:

أ ـ فهى كثيرة.

ب ـ تندر إقامة البينة عليها.

ج ـ عظم أمرها. فاشتدت عقوبتها. لتكون أبلغ فى الزجر.

فيم تقطع يد السارق:

قيل: فى ربع دينار فصاعدا... وربما ظن أن الجزاء أشد من حجم الجريمة.. ناسين أن ذلك مفيد فى قطع الطريق على من تسول له نفسه أن يسرق.

فإذا علم الإنسان أن يده ستفصل عنه إلى الأبد.. بسبب أمر زهيد الثمن.. فربما تورع عن التورط فيها.. وليتجه إلى الكسب الشريف.. مع الاحتفاظ بيده.. وبسمعته وسمعة ولده أيضا.

وقفة تأمل :

من هى المرأة المخزومية التى سرقت؟

تقول صحيفة السوابق الخاصة بها:

كانت تستعير المتاع.. وتجحده!..وقد يكون ذلك المتاع حليا.

وإذن.. فلم تكن قريش منطقية مع نفسها حين قررت إنقاذ هذه المرأة من القطع.. ولو كانوا يدافعون عن امرأة شريفة فعلا.. تورطت يوما فى السرقة.. ربما كان لهم بعض العذر.

ولكنهم يحاولون إنقاذ امرأة كانت السرقة عادة لها.. وطبعا لا تطبعا كما تقول صحيفة سوابقها. فأين هو الشرف فى كيانها؟ بل ما هو الشرف؟!

ومعنى هذه الشفاعة بداهة: أن تستمر موجة الخيانة فى اندفاعها.. وأن تتسع دائرة الانحراف.. ما دام وراء المجرم خط دفاع يحميه من العقاب.

وبالإضافة إلى علم قريش بقطع يد السارق قبل الإسلام.

فلم يحاولون إبطاله اليوم؟

هل تجوز الشفاعة فى حد من حدود الله؟

يقول العلماء: إن الشفاعة فى الحد حرام. متى بلغ الإمام.. لتظل كلمة الإمام مسموعة وجانبه مرهوبا..

وإلا.. فإن تردده في اقامة الحد بعد أن يبلغه يهز صورته فى أعين الناس.. ولا يصلح لإنفاذ شريعة الله تعالى فى الأرض.

أما قبل بلوغه:

أ ـ فأجاز البعض الشفاعة فيه.

لكنهم وضعوا لذلك شروطا لا يتم الجواز إلا بها:

وذلك: إذا لم يكن المشفوع فيه صاحب شر.. أى إذا لم يكن مجرما عتيدا.. يحترف الإجرام.. ويعيث فى الأرض فسادا.. ولا يسلم الناس من شره. فإن كان كذلك: لا يجوز الشفاعة فيه.

أما إذا كانت الجريمة عارضة فى حياته.. فلا بأس.

المعاصى التى لا حد فيها:

أما المعاصى التى لا حد فيها.. وواجبها التعزيز.. فتجوز فيها الشفاعة.

سواء بلغت الإمام. أم لم تبلغه. . . لأن شرها أهون.

بل إن الشفاعة فيها قد تكون مستحبة إذا لم يكن المشفوع فيه صاحب أذى. . وبذلك يجد فرصته لاستئناف حياة جديدة شريفة. تحقق من النتائج الطيبة ما يفوق فى آثاره الخيرة مجرد عقابه أو تعذيبه:

دلالة اهتمام قريش:

ولقد كان موقف قريش ـ من حيث لم يريدوا ـ دلالة أكيدة على أنه ﷺ لا يجامل فى حد من حدود الله تحت أى ظرف من الظروف.

أـ اهتمامهم البالغ بالقضية التى صارت قضية الساعة.

ب ـ ما يفيده ذلك من علمهم المؤكد أن الرسول ﷺ لا يجامل فى الحق أحدا.

ج ـ اختيارهم «أسامة» رضى الله عنه بالذات نظرا لصلته القوية به ورابطة الحب التى تجمعهما.

د ـ استعانت المرأة نفسها ـ كما تقول بعض الروايات بأم سلمة رضى الله عنها.

وإنما لجأت إليها بالذات. . . لأن المخزومية السارقة كانت بنت أخى أبى سلمة الصحابى الجليل.

والذى كان زوج أم سلمة قبل النبى ﷺ. . كما جاء فى شرح البخارى.

ومعنى ذلك: أن الذين يحاولون إحباط مفعول الشريعة فى دنيا الناس. . يمارسون نشاطهم بذكاء ودراية. . فلا يخبطون خبط عشواء. . وإنما يدبرون أمرهم بليل. . ويختارون لتنفيذ خططهم أشخاصا لهم ميزات خاصة ينفذون عن طريقهم مشيئتهم ويحققون مآربهم فى تعطيل شرع الله تعالى .

وربما كانت لهم وسائلهم الخاصة فى الإقناع بالهدايا. . أو الرشاوى . أو الكلمات المعسولة والوعود الكاذبة .

ولكن الصحوة الإسلامية كفيلة بإفشال هذا المخطط.. الذى ما زال حتى اليوم يمارس نشاطه على أوسع نطاق.

أسامة يشفع فى حد من حدود الله !!

ووقع أسامة رضى الله عنه فى الشرك المنصوب!

وما أكثر ما ينخدع الناس الطيبون بأساليب الخداع والتمويه إلا أن تداركهم رحمة من ربهم.

وكان الدرس البليغ: (تلون وجه الرسول)

الوجه الذى كان كالمذهبة إشراقا ونضارة.. يتغير اليوم بالغضب بما يشبه النذير المدمدم..

ولم يزد على أن أنكر على أسامة موقفه إنكارا مشبعا باللوم والتقريع على أمر ما كان يتوقع من مثل حبه أسامة رضى الله عنه.

فإذا جاز لأحد أن يتجاسر ليشفع فى حد من حدود الله.. فإن أسامة بن زيد آخر من يفعل ذلك!

وإذا كان حب رسول الله ﷺ وأقرب الناس إلى قلبه. فقد كان مقتضى هذا الحب هو العكس:

أن يعين حبيبه ﷺ على أمر الله لينفذ شرعه ويقيم حده على من خالف أمره.. لا أن يساعد على استمرار الانحراف وإن جاء ذلك عفوا وبلا سبق إصرار.

المتقون.. يتذكرون:

وإذن. فإن صلة أسامة بحبيبه ﷺ تتعرض الآن لهزة عنيفة.. وامتحان عسير!

ولكن الذين اتقوا إذا ما أخطأوا.. يكون الخطأ فى حياتهم عابرا.. وما أسرع ما يتذكرون.. فيصحو الضمير.. وتستيقظ البصيرة لترى المواقف بعين الحق.. وهذا ما حدث بالفعل.. عندما أحس أسامة بخطئه.. طالب المغفرة من حبيبه

ﷺ فقال: استغفر لى يا رسول الله .

العلاج الشامل:

لكن القضية هنا لا تخص أسامة وحده. . وإنما هى قضية الناس إلى أن تقوم الساعة. .

الناس: الذين يتحركون أحيانا بوازع من أهوائهم فيحاولون أن يعطلوا بها شرع الله . .

وإذن. . فلابد من درس بليغ وشامل. . ينطلق من خصوصية السبب إلى الإعلام بسنة من سنن الله تعالى فى الاجتماع البشرى. . والتى يرد اليها هلاك الأمم.

وكان من الممكن أن يكتفى الرسول ﷺ بالإنكار على أسامة. . وينتهى الموقف. . بعد أن تكون الموعظة قد حققت أهدافها بطلبه المغفرة. وكان من الممكن أيضا أن يقوم خطيبا فى ذات اللحظة. . لكنه ﷺ أدرك حساسية الموقف. .

وما يمكن أن يسفر عنه من عظة بليغة. . حيث لم يجامل حبيبه بأدنى مستويات المجاملة. . بل نهره وعلى الملأ! كل أولئك لابد أن يخاط به الناس علما. . ثم انتظر إلى المساء ـ كما تقول بعض الروايات ـ حى تناقل الناس الأمر. وكثرت التعليقات والتكهنات. . وبالتالى زاد شوق النفوس إلى القرار النهائى فى هذه القضية. . فجاءت خطبته ﷺ فى المساء. . معلنة منهج الإسلام الصارم. الذى لا يجامل على حساب الحق. . ولو كان يجامل مرة واحدة. . لكانت هذه المرة مع حبيبه أسامة بن زيد. . لكنه لم يفعل. ولو أنه ﷺ وقف خطيبا فور محاولة الشفاعة. . ربما لم تكن القصة قد أخذت أهميتها. . وربما لم تكن الذاكرة بقادرة على الاحتفاظ بهذه التجربة حية متوهجة.

من أسباب هلاك الأمم :

وعلى قصر خطبته ﷺ إلا أنها احتوت على:

أ ـ انذار مبكر لأمته التى فتح أعينها على أسباب هلاك الأمم. . أو على

السبب الرئيسى والذى يكمن فى اهتزاز المقياس فى يد الحاكم.. عندما يكيل بكيلين.. ويزن بميزانين.. فإذا سرق الشريف تركه.. وإذا سرق الضعيف أقام عليه الحد.

ب صرامة الحاكم الإسلامى والذى لا يفرق بين سارق وسارق. بل يقيم الحد على من اقترف سببه ولو كان ولده من صلبه.

لماذا الهلاك؟

إذا ترك الشريف بلا رادع.. فإنه سوف يستمر فى سرقته كما وكيفا فى غيبة السلطان الرادع..

تكثر حوادث السرقة لتصبح ظاهرة اجتماعية ثم.. يتجرأ المتروك فينتقل من سرقة القلم إلى سرقة السيارة!

ويشاهد الضعفاء ذلك.. فيتألمون.. وتلتهب قلوبهم بالحقد.. ثم يتربصون بالدولة الدوائر.. وعندما تواتيهم الظروف يضربون ضربتهم الانتقامية.. ولك أن تتصور هذا الضعيف جنديا فى الجيش.. أو مدرسا أو مهندسا.. هل يمكن أن يخلص لوطنه؟

وكيف يخلص لوطن يحابى المجرمين على حسابه؟!

وناهيك بذلك سببا يتأدى بالأمة إلى البوار.

وسوف يجد هذا القلق المتربص متنفسه يوما فى الانضمام إلى الجماعات الهدامة.. ويصبح المجتمع المسلم أشد ضلالا من المجتمعات الملحده التى يراد إصلاحها!!

وقد تشاهد اليوم أمما اهتز فى يدها المقياس هكذا.. ومع ذلك فهى باقية؟

ولكن.. صبرا:

إنه بقاء الشباب الذى تستكن فى كيانه بذور العلة.. ومع ذلك فما زالت لديه قوة مختزنة تعينه على النشاط والحركة..

وسوف يسقط غدا وينكسر عوده.. كعصا سليمان: أكلتها دابة الأرض من

حيث لا يشعر الناس.. بل وفى قمة انبهارهم بها.

القدوة الحسنة..

ويقسم الرسول ﷺ مع أن أحدا لم يطالبه بقسم - لتصغى القلوب إلى عظم المقسم عليه:

فلو كانت السارقة:

أ - امرأة ضعيفة. وقليلة الحيلة بأنوثتها..

ب - وكانت هذه المرأة فاطمة ابنته..

ج - بل وأعز أولاده جميعا..

د - لتولى هو قطع يدها.. ولم يكلف أحدا أن ينوب عنه فى ذلك.. متجاهلا غرائز الأبوة فى كيانه!!

وليس وراء هذه الصرامة فى إقامة الحدود وراء.. وليس معها عذر لإنسان تمتد يداه إلى أموال الآخرين.. وإنها لأعلى صور العدل المانع للأمة من الهلاك..

وأول من حماه من الهلاك: المرأة المخزومية نفسها.. لقد تابت. وحسنت توبتها.. بل وكان ﷺ يقضى حاجاتها. ويفتح لآمالها قلبه..

دور المجتمع:

وكان المجتمع الإسلامى كريما متشبعا بالروح الإسلامية السمحة. وعامل المرأة كما عاملها ﷺ.

فلم يلاحقها الناس باللوم والتثريب.. ولم يجعلوا من حادث سرقتها أغنية على كل لسان تذكر بهذه النكتة السوداء فى صحيفة حياتها. وإنما نسى هذا كله..

وتقدم منها رجل مسلم فتزوجها.. لتعيش فى ظله عزيزة كريمة.

ويحكى من صور تكريمها: أن امرأة الصحابى «أسيد بن حضير» رأتها بعد أن قطعت. ووضعت لها طعاما...وأن أسيد ذكر ذلك للنبى ﷺ. كالمنكر على امرأته.

فقال ﷺ: «رحمتها.. رحمها الله»

واذا كان المفروض فى المرأة أن تطلق لسانها فى مثل هذه المواقف باللوم.. وإنها لتسرف فيه.. بحكم تكوينها كأنثى تغار.. وتحملها الغيرة على التشهير بزميلاتها وبخاصة من اقترفت كالمخزومية ذنبا.. إلا أن زوجة الصحابى الجليل تقف حيث وقف بها الرسول ﷺ.. راحمة.. مشفقة.. مقدرة.. فأخذت نصيبها دعوة مستجابة أثقل فى ميزانها من كل ما قدمت إلى المخزومية فى محنتها..

وتسمع فاطمة رضى الله عنها بما قرره أبوها ﷺ فإذا هى ـ كالعهد بها ـ ماضية على الصراط المستقيم أبدا..

وطبيعى ـ إذا كان الحاكم هكذا صارما ـ أن يكون ولده أول الملتزمين.. فتعف يده عن الحرام.. ويكون امتدادا كريما لعمر أبيه المبارك بهذه الصحوة وهذه الشدة التى لا تحابى أحدا.. فإذا مات الحاكم لحقته الدعوات نورا فى قبره.. ولو أنه تراخى.. لتجرأ الولد على السلب والنهب فى غفلة من أبيه الحاكم.. فإذا مات لاحقته الأقلام والألسنة التى تنبش قبره من بعد موته ليصبح حديث الركبان فى كل مكان!!

المجتمع الإسلامى اليوم:

عندما استشعرت المخزومية خطورة ذنبها.. ذهبت إليه ﷺ وقالت: هل لى من توبة يا رسول الله؟

قال: «أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك»

ولكن ماذا يحدث فى المجتمعات الإسلامية اليوم؟ إن مسافة الخلف واسعة جدا!.. فبينما كانت السرقة أندر من الكبريت الأحمر كما يقولون.. إلا أن السارق كان يعاقب.. ثم يتوب.. ثم يستقبله المجتمع بعد ذلك عضوا نافعا يعيش فى حماه عزيزا.. بلا تثريب ولا ملاحقة بأطياف الماضى البغيض.

بيد أن المجتمع اليوم: يسرق.. فلا تقطع يده.. بل ويسخر ممن يطالب بقطع

يد السارق..

ولكن: هل المجتمع حين يحميه من القطع.. ويسخر ممن يقرر ذلك يفعل هذا تقديرا له وشفقة عليه؟!

أبدا.. إنهم المترفون الخائفون من جرائمهم.. ومن ثم يهبون كالإعصار فى وجه كل رأى يتأدى بهم إلى العقاب الصارم أو يفطمهم عن صور مجونهم. ولو أن واحدا تزوج من سارقة.. لبقيت هذه الخطيئة فى عقبها تهمة باقية لا تنسى!!

إنه المجتمع المتخبط.. القائم على التناقض المؤدى به حتما إلى البوار.. إنها نقطة العمل بين مجتمعين.. بل ونقطة الالتباس فى أذهان بعض الناس..

النتيجة:

ونتيجة هذا التناقض مرة المذاق بطبيعة الحال: صارت السرقة ظاهرة اجتماعية كما قلنا..

وفى غفلة القانون.. انتفض السراق.. وتحركوا بطلاقة على المسرح.. بلا منازع أو رادع... تحركوا فيما يشبه التحدى للقانون.. وعلى نحو يصعب تلافيه.. إلا إذا تمثلنا روح الإسلام.. وكنا عند حسن ظن الإسلام بنا.. ووقفنا بالمرصاد لكل عابث بأمن الدولة..

ولا يكون ذلك إلا بتطبيق شرع الله تعالى والذى يتعقب الجناة فى كل مواطنهم لإلزامهم كلمة التقوى.. ولتختفى من حياتنا هذه الرحمة المفتعلة بالسارق.. لا بالمسروق!!

وحدثنى بربك كيف تسرق امرأة.. وبالذات على جبل عرفات.. ثم تعاقب بالسجن سنة واحدة على جريمة مضاعفة تتم فى لحظة يعايش الحجاج فيها الحياة الآخرة؟! ما أسهل الثمن.. وما أسهل العودة إلى مثل هذه الجريمة فى عام قابل.. وربما ضاعفت من نشاطها لأن القانون يحميها أحيانا من العقاب حين ترفض الدولة التى وقعت فيها السرقة أن تعاقب السارق لأنه من دولة أخرى؟![1]

(١) الفكرة للدكتور أحمد شوقى الفنجرى مجلة الوعى الاسلامى ٢٠٢.

إن القضية أخطر من أن تعالج بالشعارات والمزايدات وكئوس الآمال فى تطبيق الشريعة الإسلامية تخدر بها أعصاب المتحمسين للتطبيق.

وإذا أردنا إصرارا على المزايدات والشعارات. وازددنا إصرارا على إخفاء الرؤس فى الرمال. فسوف نغوص فى الرمال أكثر وأكثر فالرمال متحركة.. وسوف يزداد ما نقدم من خريجين الى مسرح الجريمة... وسوف يتحول التعليم بلا تربية إلى تعليم بلا تعلم. لقد طالعتنا الصحف منذ أيام بإعلان الحكم فى قضية عصابة الطلبة التى سرقت أربعين شقة. فإذا هو سنة واحدة مع الشغل! هل هذا حكم رادع أو إنها شفقة.. وعلى من تكون الشفقة؟ على السارق أم على ضحيته؟!

لقد عشنا زمانا كان التلميذ فيه يحاسب على قص أظافره. وكى طربوشه.. وتلميع حذائه. ونظافة ثيابه. وكان الناظر يمر على طابور الصباح. ليخرج أى طالب يهمل نظافته. ويحرمه من دخول الفصل.

كانت النظافة على أيامنا بطاقة ضرورية لدخول المدرسة. وكانت الأخلاق شرطا للقبول.

أما الآن: فقد استوت النظافة وعدمها. واستوى النجاح والرسوب. واستوى الاجتهاد والإهمال.. أمام كرم الدولة الذى لايميز فى المعاملة بين هذا وذلك.

وظنوا أن ما يفعلونه رحمة بنا وبأولادنا. ونسوا أن أرحم الراحمين الذى نتعلم منه الرحمة لم يسو فى ميزانه بين المحسن والمسىء.

تعقيب:

للمرحوم الدكتور محمد جلال: قال: قال ﷺ لأسامة بن زيد: **«والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها»:**

وبيان الحديث:

١ ـ تحرم الوساطة، والشفاعة لمنع تطبيق القانون على بعض المجرمين لارتفاع أنسابهم، أو علو مراكزهم، أو التعلل بمنع إظهار الفضائح، لأنه تعاون على

الإثم، والعدوان المحرم بإطلاق.

٢ ـ تجب المساواة فى تطبيق القانون على المكلفين بإحكامه بغير تفرقة بين من يستطيعون الإفلات من قبضته ومن حرموا ضمانات مثل هذا الإفلات، المدمر لكيان الأمة، المقوض لبناء استقرار المجتمع.

٣ ـ بيان عظمة النبى فى إقامة العدل المطلق بغير اهتمام لغضب بعض القبائل، أو التفات لمحاباتها سياسة، لفرط تركيزه على الموضوعية الاصلاحية الخالصة لتأييد النظام، ولبعد نظره فى تأسيس بناء مستقبل الأمة الاسلامية على تقاليد قانونية مطبقة تضمن لها سلامة البقاء.

المعتضد

الخليفة .. الداعية

إذا ادلهمت الخطوب.. وتعقد الموقف.. واكفهر الجو.. فماذا يقول المجربون عن عناصر النجاح فى شخصية الإنسان والتى تعينه على اقتحام العقبة!

إنها البداية المحكومة بالعزم.. وتلك هى الإرادة.. ثم القرارات الواضحة.. الجادة.. وتلك هى الرؤية.. ثم الاستمرار.. وهذا هو الصبر..

وبالرؤية الواضحة.. والإرادة المصممة.. والصبر الجميل.. تتحول الأحلام إلى حقائق. والرؤيا.. إلى رؤية.. والتى تتحول إلى رأى.. ليكون الرأى من بعدُ حقيقةً تفرض نفسها على واقع الحياة.. شاهدةً بقدرة الإنسان على النجاح.. متى كان متسلحا بأسباب هذا النجاح. وكذلك كان الخليفة المعتضد:

وكيف؟

لقد تسلم مقاليد الأمور فى ظروف صعبة: [فقد ضَعُفَ أمر الخلافة فى أيام عمه المعتمد][1].

ويعنى ذلك: أنه وَرِثَ عن عمه تركة باهظةَ التكاليف.. وكان عليه أن ينهض بما نِيطَ به من أحمال ثقال.. لا سيما والرأى العام عندئذ زاهد فى أسرة له معها - فى شخص عمه المعتمد - ماضٍ كئيب.. ولكنه أثبت من بعد أن عمه وإن كان ورقة جافة سقطت على الأرض بعد أن قل عطاؤها.. فإن المعتضد كان ذلك البُرعمَ البازغ.. والذى ناب عن هذه الورقة فى تجدد العطاء.

عناصر النجاح:

ولقد خاض المعتضد التجربة بنجاح.. وكان من أسباب هذا النجاح ما يلى:

١ - مع أن أمه.. «أم ولد».. إلا أنه قُرشى ورِث عن قريش: الحزم. والجرأة والإقدام.

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير. جـ١١/ ٩٢ وما بعدها

٢ ـ وتحدر إليه من هذه الثروة النصيب الأوفى من أبيه الذى أخذه منذ صغره بعزائم الأمور.

٣ ـ لم يكن متهورا.. كما أنه لم يكن جبانا.. ولكنه جمع بين حذر الجبان.. وإقدام المتهور.. فاستقام له من ذلك مزيج.. اقتحم به المواقف الصعبة.. على النحو الذى يكشف عنه هذا الموقف:

شدته على المفسدين:

اجتاز المعتضد ـ فى بعض أسفاره ـ بقرية فيها ـ مزرعة قِثّاء ـ فوقف صاحبُها صائحا مستصرخا بالخليفة.

فلما استُدعِيَ سأله عن أمره. فقال: إن بعض الجيش أخذوا لى شيئا من القثاء. وهُم من غلمانك. فقاله له الخليفة: أتعرفهم؟ فقال: نعم. فعرضهم عليه. فعرف منهم ثلاثة. فأمر الخليفة بتقييدهم، وحبسهم.

فلما كان الصباح: نَظَرَ الناسُ ثلاثة أنفس مصلوبين على جادة الطريق[1] فاستعظم الناس ذلك. واستنكروه. وعابوا ذلك على الخليفة. وقالوا: قَتَل ثلاثةً بسبب قثاء أخذوه؟!!

فلما كان بعد قليل أمر «الخواص» ـ وهو مسامره ـ أن ينكر عليه ذلك. ويتلطف فى مخاطبته فى ذلك... والأمراء حضور.

فدخل عليه ليلةً وقد عَزَم على ذلك. ففهم الخليفة ما فى نفسه من كلام يريد أن يبديَه فقال لسميره الخوّاص:

إنى أعرف أن فى نفسك كلاما.. فما هو؟ فقال: يا أمير المؤمنين: وأنا آمِنْ؟! قال: نعم.

قلت له: فإن الناس ينكرون عليك تسرعك فى سفك الدماء. فقال: والله ما سفكْتُ دما حراما منذ ولِّيت الخلافة إلا بحقه.

فقلت له: فعلام قتلت «أحمد بن الطيب» وقد كان خادمك. ولم نُظهر لك

(١) جادة الطريق: وسطه.

خيانة؟! فقال: ويحك!! إنه دعانى إلى الإلحاد والكفرِ بالله فيما بينى وبينه. فلما دعانى إلى ذلك قلت له: يا هذا: أنا ابن عم صاحب الشريعة!! وأنا منتصب فى منصبه.. فأكفرُ حتى أكون من غيرِ قبيلته...

فقتلتهُ على الكفر والزندقة!! فقلت له: فما بال الثلاثة الذين قتلتهم على القثاء؟!! فقال: والله ما كان هؤلاء الذين أخذوا القثاء!!.. وإنما كانوا لصوصا: قد قَتَلوا، وأخذوا المال فقتلتهم ـ: فبعثتُ فجئت بهم من السجن فقتلتهم. وأريت الناس أنهم أخذوا القثاء.. وأردت بذلك أن أُرهب الجيش. لئلا يُفسدُوا فى الأرض. ويتعدواْ على الناس. وليكفُّوا عن الأذى.

ثم أمر بإخراج أولئك الذين أخذوا القثاء. فأطلقهم. بعد ما استتابهم وخلع عليهم. وردهم إلى أرزاقهم.

قيادة راشدة:

القائد الراشد: يفهم أولا معنى الحدث.. ثم عَلاقتَه بغيره من الأحداث.. وبينما السطحيون يدركون القشرة البادية.. فإنه ينفذ إلى الأعماق.. الى جانب نظرته المستقبلية التى تتجاوز الحاضر.. تُسابق الأحداث قبل أن تحتويَه الأحداث..

وكذلك كان المعتضد رحمه الله والذى دلت حكمته فى تناول الأمور على هذا الرشد الكاشف عن مجموعة من القيم نلخصها فيما يلى:

١ ـ إن المظلوم هنا أحس بالظلم.. ثم عبر عنه فى شكواه إلى الخليفة الذى تحمَّل مسئوليته عن تغيير المنكر.. فورْ علمه بوقوعه.. وكثيرة هى الحقوق التى تضيع لأن الغافلين من أصحابها ساكتون..

٢ ـ لكن.. لماذ صرخ الفلاح هنا؟

لقد سقى الأرض بعرق جبينه قبل أن يسقيها بماء السماء.. وقد يجود بالثمرة يقطفها بيده.. أما أن يكون حقله حِمى مستباحا فهذا هو الظلم البين.

وكان منصفا حين رفع القضية إلى القادر على البتّ فيها.. ولم يكتف بالصياح.

---

(١) جادة الطريق: وسطه.

٣ ـ والفلاح البسيط يعلمنا فى الدعوة درسا لا ينسى:

فقد تكون محقا فى دعوتك الناس إلى الخير.. لكنك لم تنجح فى توصيل هذه الدعوة إلى الآخرين.

وعندئذ فلابد من اكتشاف هذه الثغرة قبل أن نظلم المدعوين.. أرأيت إلى هذه السيارة المنطلقة عبر الطريق: لقد توقَّفَتْ فجأة.. ومع أن «ماكينة» السيارة تدور.. لكن السيارة ثابتة لا تتحرك.. لماذا؟

أ ـ إما لأن الطاقة الآلية لم تنتقل من الماكينة خلال صندوق تروس السرعة إلى عجلاتها.

ب ـ أو لأن اشتباك التروس مع بعضها داخل الصندوق مختل..

[إن الماكينة جادة فى السير والدوران. لكنه جهد ضائع... لأن السيارة لم تتحرك قيد أنملة. فى الحالة الأولى.

وإذا سارت السيارة فى الحالة الثانية فإنها تخطو متعثرة][1].

والماكينة هنا هى: حقائق الدعوة على لسان الداعى.. والسيارة هى المدعو: الذى لم ينتفع بما قيل.. لأن وسيلة الداعى عاجزة عن التوصيل.

وإذن.. فإن لديك مشكلة.. لكنها لم تحل.. وعليك أن تتأكد أولا من قدرتك على الإجابة عن هذه الأسئلة:

هل إحساسى بالمشكلة صادق؟

وهل أبْلغتُها إلى المسؤول القادر على البتِّ فيها؟

ثم.. هل أحسنت فى هذا البلاغ؟!

٤ ـ ولقد بدأ التحقيق الفورى من قِبل الخليفة الذى أوقف الركب كله حتى يحق الحق ويبطل الباطل..

ومن أجل ماذا وقف الركب المهيب؟

---

(١) الدعوة إلى الايمان: ٥٩.

من أجل ثمرة قد تكون واحدة.. من القثّاء!!

ذلك بأن طعم الظلم واحد: فى اليسير.. والخطير.. ومعظم النار من مستصغر الشرر..

ومتى علم القاصى والدانى بما حدث.. لكان ذلك كافيا لردعه عن تكرار المحاولة الآثمة.

إنها إذن محقَّرات الأمور التى صارت وسيلة الشيطان الرجيم لإفسادنا.. من حيث نستهين بها.. حتى تصير من بعدُ هما مقيما..

لقد كان المعتضد ذلك الحاكمَ الراشدَ الحصيف.. الذى يعاقب على النقير والقطمير.. قبل أن تكون الجرأة على المحارم عادة.. وواقعنا اليوم شاهد على ذلك:

ربما صدّرت دولةٌ ما تنتجه مصانعها من ملابس... لكنها تُردّ إليها لأن الدبابيس صدأت.. فأفسدت الملابس.. وضيّعت ملايين الجنيهات.. وفوق ذلك غبّشت على سمعة الأمة فى المجتمع الدولى.

إن حصاةً من الرمل.. يعثرُ عليها الأجنبى فى علبة الطعام يحمله على الفرار من كل مستورد من هذه الأمة التى لم يدقّ لديها الإحساس بأذواق الناس.

٥ ـ ولاحظ من وفاء المعتضد للحق أنه عرّض سمعته للخطر يوما.. فى سبيل إحكام خطته للقضاء على الانحراف..

وذلك حين أمر بقتل ثلاثة ثم صلبهم.. وترك الناس للوهم الذى زين لهم أنهم قتلى المزرعة الذين أخذوا من قثائه!.. وهم فى الحقيقة محاربون قطاع طريق..

وكان من تدبيره أن اتفق مع سميره.. الخواص.. على أن يفاتحه وعلى الملأ.. فيطلبَ منه تفسيرَ ما حدث.. شريطة أن يحتفظ للخليفة بهيبته ليظل قادرا على أن يسوس الأمة من منطلق القوة..

وزيادة فى إحكام الخطة يقول له سميره: أقول وأنا آمن يا أمير المؤمنين ـ

والمفروض أنه آمِنٌ طبق الخطّة المبيتة ـ

إن للرياسة نشوةً. . ترفض الإهانة. . وإنها لتقبل النصيحة. . لكنها لا تقبل الإهانة.

٦ـ ولاحظ أن «سمير» الخليفة. . ليس واحدا من الهازلين العابثين من سمار الليالى كما نقرأ عنهم. . ولكنه السمير. . الحصيف. . الحكيم. . والشاهد بحكمته وحصافته على نجاح الحاكم فى اختيار رجاله وأمناء سره.

٧ـ وهو واحد من دروس الموقف يتجه للدعاة بخاصة:

أن يتخيّروا رجالهم والمتحدثين باسمهم. . فالثقة بالمستشار لا تُغنى عن الخبرة الواعية. . ذلك بأنه مما يدل على عقول الرجال ما قيل: الهدية. والكتاب. والرسول. . . الرسول: السفير. . الذى لا ينفّذ الأوامر بتسرع وسطحية: بحيث يتوسع. . ولا يتطور. . يكرر. . ولا يجدّد. .

وإنما هو الذى وصفه بهاء الدين العاملى: وكأنما يصف سمير المعتضد:

[خير الخدم: من كان كاتمَ السر. عادم الشر. قليل المؤونة. كثير المعونة. صموت اللسان. شكور الإحسان. . . حلو العبارة. درّاكٌ الإشارة. . . عفيف الأطراف. عديم الإتراف].

إن سمير الخليفة هنا ليس فقط للضّحك. . وقتلِ الوقت. . ولكنه المْعين على أمر الله تعالى. . والذى اتفق معه الخليفة على أن يجرى معه حديثا صَحفيا. . يردّ فيه ردا غير مباشر على ما أثير حوله ويثار. . وقد نجح فى سفارته.

ولن يخرجنا عن موضوعنا ما روى من أن أبا الأسود الدؤلى سمع رجلا ينشد :

إذا كنت فى حاجة مرسلا — فأرسل حكيما ولا توصه

فقال أبو الأسود: لقد أساء القول. . أيعلم الغيب؟!!

إذا لم يوصه. فكيف يعلم ما فى نفسه؟ ألا قال:

إذا أرسلت فى أمر رسـولا   فأفهمه وأرسله أريبـا
ولا تترك وصيته لشـىء   وإنْ هو كان ذا عقل أريبـا
وإن ضيّعتَ ذاك فلا تلمه   على أن لم يكن عَلِمَ الغيوبـا

٨ ـ ولقد كان المعتضد واحدا من الذين وضَعُوا أسس السفارة.. وما يجب أن يتحلى به السفير من حُنكة وأناة وتبصر..

ونجاح سميره فى سفارته إن صح التعبير قاعدة من قواعد هذا العلم التى تؤكد مسؤوليةَ الجالسين فى مواقع الإدارة عن رجالهم.. داخل الدولة.. وخارجها.. وهو الأهم:

ونقرأ من ملامح هذا العلم ما قاله الخُبَراء:

«يجب أن يُعلم أن الملوك بإرسالهم السفراء لا يقصدون تسليم رسالة أو نقل سفاره فقط بل هناك مئات الأغراض يبغونها فهُم فى الحقيقة يريدون أن يعلموا حالة الطريق ويعلموا إذا كانت معبدة تستطيع أن تمر بها والأمكنة التى تود بها المروج والأعشاب وأن يعلموا قوة الجيش ومؤونته فى العدد والعتاد وفى الدفاع والهجوم وأن يعرفوا كيف يعيش الأمير بمن يجتمع وأن يدركوا تنظيمات بلاطه وعادات وأخلاقه فى عدله وظلمه وسهره، وكرمه وهل هو متعلم أم جاهل وهل ازدهرت مملكته بالعمران وهل رضى عنه جنده أم هم مغضبون وهل أتباعه من الفقراء أو الأغنياء، وهل يجدد فى شؤون مملكته أو يهملها، وهل هو بخيل أو جواد ووزيره قادر أو عاجز وحاشيته من العلماء الأذكياء أم لا، وماذا يُحب وماذا يبغض؟ وهل يميل إلى النساء حتى إذا رغبوا فى مهاجمة مملكته أو أرادوا نقض خططه كانوا مطلعين مدركين يضعون المحاسن والمساوئ نُصبَ أعينهم ينهجُون بحسبها».

٩ـ والمعتضد بحيلتة فى إقناع أمته.. يهيئ الدعاة أن يوظفوا ذكاءهم لتكون الحيلة وسيلة فى أيديهم يحققون بها ما لم تحققه المواجهة المباشرة.. وتاريخنا حافل بما للحيلة من أثر يذكر: خذ مثلا أبا جندل: لقد احتال على السجان.. وهرب قاصداً رسول الله ﷺ فى الحديبية. وكانت أشباح السجن تطارده.. لكن

الأمل فى الحرية كان يناوشه من قريب.

وفوجئ أبوه «سهيل بن عمرو» بابنه.. الذى كان مجيئه مسلماً سخرية منه لاذعة.. لم يتمالك سهيل معها نفسه فظل يلطم وجه ولده.. واستنجد.. أبو جندل.. بالرسول ﷺ. وحاول ﷺ أن يستثنيه من قرار التسليم للكفار حسب نصوص المعاهدة.. ورفض سهيل بحجة أن الاتفاق قد تم على بنودها.. ومن بنودها تسليم من جاء مسلماً إلى الكفار.. ووافق الرسول داعيا لأبى جندل بالفرج... وعاد كاسف البال.. ولحق به عمر.. فعرض عليه سيفاً ليقتل به أباه.. فقال لعمر: لماذا لم تقتله أنت!

فقال عمر: لأن الرسول لم يأذن لنا بقتل. فقال أبو جندل: ما أنت بأشد طاعة لرسول الله منى!!

قالها فى ظروف عصيبة.. لو خرج عن طوره فيها لما لامَهُ أحدٌ. ولكنه الحب.. الحب فى الله.. حبٌ رسول الله .. يهون فى سبيله كل شىء حتى النفس.. حتى الحياة!!

وهذا تعقيب.. جرنا إليه مالجأ إليه المعتضد من حيلة تلطف بها.. وبرفق.. حتى حقق الله بها أمله.. لتكون لنا فيها عبرة. وللدعاة بالذات ولنتعلم من غيرنا:

تسلح الشيوعيون على مدى سبعين عاما ـ بالذكاء والدهاء .. والحيلة... وعلى ضوء ذلك.. وظَّفوا خبرتهم ومعرفتهم بطبائع النفوس.. وأحوال العمران.. وقد عرفوا أن السخط هو المنبت الخصب للشيوعيين فكان من مبادئهم:

أعطنى ساخطا واحدا.. وأنا أعطيك قنبلة بشرية!

ومن ثم: وجدوا فى كل أمة نوعين.. أو حجرين أطلقا منهما الشرارة التى أشعلت الحريق: وجدوا ناسا.. بلا مستقبل.. وناسا.. وُلدوا.. والمستقبل يناديهم وهم ما زالوا فى مهادهم..وجدوا ناساً ينجحون.. بلا تعب.. وآخرين يتعبون.. بلا نجاح.. ومعنى ذلك أن ثمرة تعبهم تذهب للآخرين من المترفين.. ووجدوها فرصة.. فخرَّبوا.. ولكن الله غالب على أمره.. وكان لابد لهذا

النشاز.. أن يكف عن الضجيج يوما.. وهذا هو الذى حدث!

القسوة الحازمة:

لقد كان المعتضد رحمه الله قاسياً.. ولكن فى حزم.. منفذاً أمر الله فى عزم.. فبينما يصدر حكمه بإعدام المفسدين.. نراه وقد فتح باب التوبة للمذنبين.. الذى اعتدَوْا على الخضرة.. وروعوا صاحب المزرعة.. وبعد أن أوقف رواتبهم.. ردها إليهم... [وبكي الذى أبكى الزمان]!!

ومع هذا الحزم.. وتلك الشدة.. فقد كان للخليفة قلب.. يهفو. ويجفُو.. ويحزن لفراق الأحبة... ذلك بأن القسوة فى معاملة الخَطّائين.. لا تعنى فُقدان الشفقة على الضعفاء.. والأصفياء.. ومن شعره فى جارية له تُوفيت فحزن عليها:

يا حبيبا: لم يكن يعد له عندى حبيب

أنت عن عينى بعيد.. ومن القلب قريب

ليس لى بعدك فى شيء من اللهو نصيب

لك من قلبى على قلبى وإن غبت رقيب

وحياتى منك مُذْ غبت حياة لا تطيب

لو ترانى: كيف لى بعدك عول ونحيب

وفؤادى حشوة من حرق الوجد لهيب

ما أرى نفسى وإن طيَّبتُها عنك تطيب

ليس دمع لىَ يعصينى وصبرى ما يجيب

الخياط.. الداعية

روى شيخ من التجار قال:

[كان لى على بعض الأمراء مال كثير. فماطلنى ومنعنى حقى وجعل كلما جئت أطالبه حجبنى عنه. ويأمرُ غلمانه يؤذوننى.

فاشتكيت عليه إلى الوزير. فلم يُفد ذلك شيئاً.. وإلى أولياء الأمر من الدولة. فلم يقطعوا منه شيئاً. وما زاده ذلك إلا منعا وجحودا.. فأيست من المال الذى عليه. ودخلنى هم من جهته.

فبينما أنا كذلك وأنا حائر إلى من أشتكى. إذ قال لى رجل: ألا تأتى فلاناً الخياط ـ إمام مسجد هناك؟ فقلت: وما عسى أن يصنع خياط مع هذا الظالم؟ أعيان الدولة لم يقطعوا فيه؟

فقال لى: هو أقطع وأخوف عنده من جميع من اشتكيت إليه!! فاذهبْ إليه لعلك أن تجد عنده فرجاً.

قال: فقصدته غير محتفل بأمره فذكرت له حاجتى ومالى ومالقيت من هذا الظالم. فقام معى.

فحين عاينه الأمير. قام إليه وأكرمه واحترمه. وبادر إلى قضاء حقى الذى عليه. فأعطانيه كاملا. وبسهولة. إلا أنه قال له: ادفع إلى هذا الرجل حقه. وإلا أذّنت!؟؟فتغير لون الأمير ودفع إلىّ حقى.

فعجبت من أمر الخياط ورثاثة حاله. كيف انطاع ـ انصاع ـ الأمير له. وعرضتُ عليه مالا فرفض قائلا: لو أردتُ هذا لكان لى من الأموال مالا يحصى.

ثم ألححت عليه ليذكر لى قصته فقال: كان فى جوارنا أمير تركى وهو شاب حسن. مرت به يوماً امرأة حسناء فقام إليها وهو سكران. فتعلق بها يريدها على نفسها ليُدخلها منزله بينما هى تصرخ قائلة:

أنا امرأة ذاتُ زوج. وهذا يريدنى وقد حلَف زوجى بالطلاق ألا أبيتَ فى غير

منزله. ومتى بت ها هنا. طُلِقت منه. ولحقني عار. لا تَدْحضه الأيام. ولا تغسله المدامع.

فقمت إليه لأخلصها منه فضربني بدبوس. حتى شج رأسي. وغلب المرأة على نفسها وأدخلها منزله.

فرجعت فغسلت الدم. وعصبت رأسي. ثم صليت بالناس العشاء.

ثم قلت للجماعة القصة. فهجمنا عليه. فلقينا غلمانه فضربونا وقصدني بالذات. فضربني حتى أدماني.

فرجعت بيتي مهموماً.. أفكر ماذا أصنع حتى لا تطلقَّ حتى هداني الله تعالى أن أؤذن الصبح أثناء الليل. لكي يظن أن الصبح قد طلع فيخرجها. ثم أذنت فلم تخرج.

وصممت على أنها إذا لم تخرج أقمت الصلاة حتى يتحقق الصباح فبينما أنظر هل تخرج المرأة أم لا.. إذا بالطريق وقد امتلأت فُرساناً ظننت أنهم جاءوا ليعينوني عليه!! فقادوني للخليفة الذى رأيته فارتعدت من الخوف.

فقال الخليفة:

أُدْنُ.. فدنوت.. فقال لي: ليسكنْ روْعك. وليهدأ قلبك.

وما زال يلاطفني حتى اطمأننت. وذهب خوفي فقال: أنت الذى أذّنت هذه الساعة؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين.

فقال: ما حملك على أن أذنت هذه الساعة.. فَتَغُرّ بذلك الصائم والمسافر والمصلى؟

فلما طلبت منه الأمان.. أمّنني.. فذكرت له القصة.

أ ـ فغضب غضباً شديداً.

ب ـ وأمر بإحضار الأمير والمرأة.. فوراً.

جـ ـ ثم بعث المرأة إلى زوجها في صحبة نسوة ثقات.

د ـ ومعهن ثقة من جهته.

هـ ـ ثم أمر رسوله أن يطلب من زوجها العفو عنها والإحسان إليها فإنها معذورة.

و ـ ثم بدأ حساب الأمير الشاب فقال له:

كم لك من الرزق . . كم راتبك . . وبدلاتك؟؟!

وكم عندك من المال؟

وكم عندك من الجوارى والزوجات.

فذكر له شيئاً كثيراً.

فقال له: ويحك!! أما كفاك ما أنعم الله عليك حتى انتهكت حرمه الله وتعدّيت حدوده. وتجرأت على السلطان؟

وما كفاك ذلك أيضا حتى عَمَدت إلى رجل أمرك بالمعروف ونهاك عن المنكر فضربته وأهنته؟

فلم يكن له جواب.

١ـ ثم أمر به فجُعِل فى رجله قيد. وفى عنقه غُل. ثم أمر به فأُدخل فى جوالق[1].

٢ـ ثم أمر به فضرب بالدبابيس ضربا شديدا حتى خَفَتَ. ثم ألقى فى دجلة.

٣ـ ثم أمر صاحب الشرطة بالتحفظ على ماله.

٤ـ وقال للخياط: كلما رأيت منكر صغيراً أو كبيراً ولو على صاحب الشرطة هذا فأعلمنى. . . فإن اجتمعنا. . وإلا: فالأذان!!

٥ـ ثم قال الخياط: فلهذا لا آمر أحدا فى هذه الدولة بشىء إلا امتثل ولا أنهاهم عن شىء إلا تركوه خوفاً من المعتضد. . .

وما احتجت أن أؤذن فى مثل تلك الساعة إلى الآن][2] .

---

(١) كيس كبير من صوف أو شعر.

(٢) البداية والنهاية : جـ١١/ ٩٥ ومابعدها ـ بتصرف يسير .

تمهيد:

إذا اجتمعت الأمة على كلمة سواء.. فوقفت صفا واحدا.. ثم تصدت للخطر الداهم.. قبل أن تسرى عدواه..

وإذا أدى المحكوم دوره فى التصدى للمنكر.. ثم خفّ إليه الحاكم فآزره.. وناصره.

إذا حدث ذلك.. ضاق الخناق حول رقبة الانحراف الذى لا مفرّ له من التسليم.. ثم الانسحاب من الساحة.. التى يتفرد بها الحق عندئذ.. تفرداً لا يسمح لنابتة السوء مرة أخرى أن تبزغ.. وتنفث سمومها.. والمحكوم هنا خياط.. رجل عادى يعيش فى زحام الناس.. ولكنه يحمل فى صدره قلب أسد.. وضمير مؤمن شديد الحساسية بأوجاع أمته.. إلى الحد الذى عرّض فيه نفسه للموت.. لتحيا قيم الشرف من بعده.

لقد كان الداعية خياطاً.. لكن حرفته لم تمنعه من أن يكون إماماً.. وإمامته لم تحُلْ بينه وبين خوض المعركة السلمية على مستوى المجتمع. فلما أعيته الحيل.. ساق الله تعالى إليه الحاكم الحازم العادل.. والذى تتم به النعمة حين يتخذ القرار المناسب.. قطعاً لدابر الفتنة وردعا لكل معتد أثيم.

هذا الحاكم الذى لم تمنعه أعباء الدولة المترامية من أن يعلن حالة الطوارئ.. من أجل حادثه فردية.. يواجهها بمنتهى الحزم حتى تخنس الفتنة من بعد.. ولا تُطِل برأسها أبدا.

المظلوم.. لا يستسلم :

ويطالعنا من دروس الموقف: إلحاح التاجر الشيخ فى المطالبة بحقه.. إيمانا منه بأنه لن يضيع حق وراءه مطالب..

ورغم أن المدين فى منصب يحميه.. وله أتباع ينفذون أوامره.. ودنيا مقبلة تيسر له من إمكانات البطش.. إلا أن ذلك لم يُضعف عزيمة الدائن الذى استعان عليه بالمسؤولين من فوقه.. ولكنه عبس وبسر ثم أدبر واستكبر.. بل وسلط غلمانه بأن يضربوه.

وهذا الإصرار على المطالبة بالحق تنغيص لهذا الجالس على الكرسى الدوار.. يشكل غصَّة فى حلقه لا تصفو معها حياة.

والذين يستسلمون للمماطل عند الجولة الأولى.. إنما يتيحون له أن يواصل غروره.. وشروره.

قيم عفنة:

ولقد كان التاجر معذوراً عندما ضاءل من شخصية الخياط بعدما فشل أعيانُ البلد!!

لكن التجربة أكدت له أن فى إمكان الإنسان مَهْما كان موقعه أن يكون شيئاً مذكورا. إذا تسلح بما تسلح به ذلك الخياط الداعية:

فتجرد للحق ولم يطلب عليه أجرا.. ثم عبر عن هذا الإخلاص بالتدخل السلمى.. دفاعاً عن قضية عادلة..

كل أولئك يجعل منه شخصية مهيبة.. تستمد هيبتها من الحق الذى تدافع عنه.. وإن لصاحب الحق مقالا.

المواجهة:

صحب الخياط.. ذلك التاجر المظلوم.. وإذا بهما أمام الأمير المماطل وجها لوجه.

ولم يزد الخياط على أن قال له: ادفع إلى هذا الرجل حقه. وإلا أذَّنت!! فاضطرب الأمير ودفع الدين.. مشفوعا بالاحترام والتكريم للخياط.. والتاجر معه!!

لقد كان الوصول إلى الأمير.. مجرد ... والوصول.. كان مرتقى صعباً إلا على الذين هدى الله.

ومن الذين هداهم الله تعالى.. ذلك الخياط الذى لم يستمد هيبته من عصا يرفعها.. أو سلاح يفْتك به.

وإنما هى القوة المشتقة من جلال الحق.. يدافع عنه رجل عليه من صفات الحق: إخلاص.. وجرأة.. وإصرار!!

صعوبة المهمة وأهمية العائد

واحتار التاجر فى أمر الخياط حيرة ممزوجة بالفرحة.. فلم يملك إلا أن سأله عن سر ما رأى وما سمع.. فكانت هذه القصة التى لخصت لنا قصة نجاح الداعية فى كل زمان ومكان.

وقد بدأت القصة بحادثة اغتصاب رآها بعينيه... ولقد كانت مهمته عندئذ صعبة:

أولا: فمرتكب الحادث شاب.. غائب الوعى.. سكران.. فالشر متوقع منه.

ثم هو أمير البلد بكل ما للإمارة من نفوذ.

بينما الخياط فردٌ. وحيد.. يغالب موجا عالياً.

لكن هذه الصعوبة تخفّ فى وجدانه.. والتضحيةُ لابد منها.. لأن العائد جزيل.

إنه انقاذ:

زوجة.. طاهرة.. عفيفة.. تستغيث من هذا الوحش الكاسر والذى يريد مستقبل أسرة بأكملها.. دامغا تاريخها كله بالعار!!

بل إن سمعة المجتمع كله معرضة للخطر. الذى إن هادنّاه.. لا يبقى ولا يذر!!

وما ظنك بنخوة رجل يرى ويسمع ما يجعل الولدان شيبا.. ثم يؤثر السلامة بينما الضحية تستصرخه؟

إن االلحظة صعبة.. والموقف رهيب.. والمسؤولية جسيمة.. وكأنى بالخياط وقد استحضر ما قاله التوحيدى تنديداً بهذه الدنيا لما رأى المشهد وأحس بالهوان.

الدنيا: تلك الدار التى امتلأت بالذئاب.. والناس فيها: سباع ضارية وكلاب عاوية.. وعقارب لسّاعة. وأفاعٍ نهاشة.

لقد صحبت الناس أربعين سنة. . . فما رأيتهم غفروالى ذنبا. . ولا ستروا عيبا. . ولا حفظوا لى غيبا. ولا أقالوا لى عثرة. . ولا رحموا لى عبرة. . ولا قبلوا منى معذرة ولا فكونى من أسر. ولا جبروا لى من كسر. ولا بذلوا لى من نصر .

والفرق بين الخياط الداعية. . والإمام التوحيدى. .أن الخياط لم يجعل من الموقف حائط المبكى. . وإنما حبس دموعه. . وقرر أن يأخذ حركته السلمية الإيجابية. . بدل الدموع. . والشكوى. . لقد سمع الخياط المرأة تصرخ محذّرة من عار يوشك أن يلحقها لا تغسله المدامع. .

وإذن. . فالوقت ليس للدموع. . وإنما للحركة السلمية الإيجابية. .التى ينهض فيها الداعية وسلاحه: إيمانه. . وإخلاصه. . وحكمته. . لقد اختار الرجل أن يسيل دمه. . دمُه هو. . لا دمُ المدعو الذى طغى وبغى. ولم يُسكت الدم فى قلبه عزيمته على إنقاذ المظلوم.

مظاهرة سلميه:

ولم يكن الخياط ذلك الذى ذهب يصلى فوجد المسجد مغلقا. . فعاد قرير العين!

ولكنه وبعد صلاة العشاء. . كرر المحاولة. . محاولة إنقاذ الضحية بصحبة المصلين الذين هبوا معه. ثم عادوا جميعاً آسفين. . وربما أسلموا أجفانهم للنوم إلا إمامهم. . إلا خياطهم الذى نبا به فِراشه. . فلم يذق للنوم طعما. . إلى أن وجد الحيلة. . حيلة الأذان. . لعلها أن تضع حداً للموقف الأليم.

اللحظة الحاسمة:

ولقد حققت الحيلة ثمرتها المباركة. . وباستثناء لحظات الرعب التي انتابت الرجل الذى ظن الشرطة جاءته نجدة. . فإذا هى تسوقه إلى الخليفة. . باستثناء هذه اللحظات. . فقد جاءت النتيجة على ما يهوى. . ويهوى الحق. . حين كان الخليفة عند حسن الظن به. . حازما.

الخليفة العالم:

ولقد كان الخليفة عالما بخفايا النفوس التى قد تنافق. . وتدور. . لو أنها

حُملت على الكلام حملا.. فى جو من الخوف والتوتر.

ولأنه حريص على أن يظهر الحق.. فقد كان عليه أن يُهَدئ من روع الخياط أولا.. حتى يتمكن فى جو الهدوء أن يقول الحق..

ومن ثم: أدنى الخياط.. متلطفا به.. فلما ذهب عنه الروع.. كان هذا التساؤل الخاطف عن سر أذانه فى جوف الليل.. وما يترتب عليه من تراكمات ومضاعفات. فلما قص عليه القصص.. كان ما كان.

حكمة الخليفة:

اتخذ: مجموعة من الإجراءات الفورية:

١ـ غضب غضبا شديداً.

٢ـ أمر بإحضار المرأة والأمير فوراً.

٣ـ ثم بعث المرأة إلى زوجها فى صحبة نساء صالحات ثقات.

٤ـ ومعهن رجل ثقة من خاصته.

٥ـ وقد أمره أن يطلب من زوجها العفو عنها. بل والإحسان إليها. لأنها معذورة.

[ولا حظ من حكمته سرعة عودة الزوجة. قطعاً للألسنة عن الخوض. وصيانة للمجتمع من سموم الشائعات.. وتهدئة الخواطر المتوترة.. بإظهار الحق. وقبول العذر].

مناقشة المتهم الحساب:

وبدأ محاسبة المسؤول على فعلته التى فَعَل..

وكان الحساب سلسلة من الأسئلة.. كأنها السهام القاتلة!

فالأمير: موفور الرزق.. محظوظ بالجوارى والزوجات.. له فى المصارف المالية رصيد.. ولم يشأ الخليفة أن ينتزع الاعتراف انتزاعاً.. لكنه التقرير الهادئ الواثق.. والذى ينتهى. تلقائيا.. باعتراف المتهم. ثم يجىء العقاب من بعد

حتمياً.. وبشهادته المتهم نفسه.

نوعية العقاب:

لقد كان العقاب مُهينا.. قبل أن يكون أليما.. فالضرب بالدبابيس.. موجع.. وأشد منه وجعا: هو القيد، والغُل.. ثم وضعه فى الجوال.. جزاء من جنس عمله.

وكان فى نفس الوقت عادلاً.. فإن قيل إن فى ذلك لقسوة.

قلنا: إن فى ذلك لعبرة: فالقسوة أن نخفف عن هذا الظالم العقاب.. لينشط تارة أخرى أكثر عتواً.. ثم يفتح الباب لغيره.. من المردة الجدد.. ومن الظلم أن تأخذنا الرأفة بظالم عاث فى الأرض فساداً.. ثم ننسى ضحاياه فى الماضى.. والمستقبل..

وحبذا هذه القسوة الرادعة.. حتى لا تتكرر المأساة.. وسوف يصحو الناس ذات صباح ليجدوا كل شىء قد تغير: الرجل الأول فى الإقليم.. انحرف فلقى جزاءه.. ثم صار اليوم طُعمة للحيتان.

ثم تعود أمواله إلى خزانة الدولة.. فهى أحق بها. إلى جانب ما يثمره الموقف من دروس:

١ـ إنّ كرسىّ الوظيفة فقط.. لمن أحسن الجلوس عليه.. بعفته وأمانته وعدله.

٢ـ ليس هناك مسؤول فوق القانون. وعلى الباغى تدور الدوائر.

٣ـ وتبقى صورة الحاكم فى عقولنا: نَجْماً فى سماء الزمان:

ليث.. إذا عدا... غيث.. إذا غدا... نجم إذا بدا... بدر إذا هدى... سُمٌّ.. إذا أردى.

ثم يعود الداعية.. الخياط.. يعود إلى داره مجبور الخاطر.. مخوّلا من قبل الحاكم بالأمر.. والنهى.. هذه السلطة التى منحت له.. عن جدارة واستحقاق.. حين أعمل الحيلة.. واستثمر كل وسيلة.. فكسب باللطف..

أضعاف ما يتحقق بالعنف.

هذا الداعية الذى قطع الله به دابر فتنة كان من الممكن أن تتسع.. ولكنه بهمته أوقف التزيف.

...

ولن نقرأ بعد اليوم عن هذا اللون من الاغتصاب. بعدما اشتد العقاب.

وهذا ما سجله الداعية الخياط فى قوله أخيراً: [وما احتجت أن أؤذن فى مثل تلك الساعة إلى الآن].

أجل.. ما به من حاجة إلى الأذان. بعدما صحا الحاكم رافعاً درةّ العدل.. وعزّ السلطان.. فخنس الشيطان.

[اللهم خذ بأيدينا.. فقد عثرنا.. واستر علينا .. فقد أعْوَرْنا ـ ظهر ضعفنا ـ وارزقنا الألفة التى بها تصلح القلوب.. وتنقى الجيوب ـ الصدور ـ حتى نتعيش فى هذه الدار مصطلحين على خير:

مؤثرين التقوى. عاملين شرائط الدين.. آخذين بأطراف المروءة آنفين من ملابسة ما يقدح فى ذات البين. متزودين للعاقبة.. التى لابد من الشخوص إليها.. ولا محيد عن الاطلاع عليها.. إنك تؤتى من تشاء.. ما تشاء][1].

روى ابن الجوزى عن بعض خدم المعتضد قال:

[كان المعتضد يوما نائما وقت القيلولة.. ونحن حول سريره فاستيقظ مذعوراً. ثم صرخ بنا فقال: ويحكم! اذهبوا إلى دجلة فأولُ سفينة تجدونها فارغة منحدرة فائتونى بملاّحها واحتفظوا بالسفينة.

فلما جئناه به كاد أن يُصعق. فصاح به الخليفة صيحة عظيمة فكادت روح الملاح تخرج. فقال له الخليفة : ويحك يا ملعون!!

اصدُقنى عن قصتك مع المرأة التى قتلتها اليوم. .وإلا ضربت عنقك!! فتلعثم الملاح الخائف.. ثم اعترف بأنه رآها جميلة.. عليها ثياب فاخرة وحلىٌ وجواهر فطمع فيها.. واحتال عليها ثم شدَّ فاها وأغرقها وأخذ جميع ما كان عليها من

---

(١) من مقدمة الصداقة والصديق للتوحيدى.

الحلى والقماش.

ثم دل على مكان المسروقات.. فأحضرت. ثم أمر الخليفة بتغريق الملاح فى نفس المكان الذى غَرَّق فيه المرأة. ولما قال له خدمه: يا أمير المؤمنين: من أين علمت هذا؟!! فقال: رأيت فى نومى تلك الساعة شيخاً أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادى:

يا أحمد.. يا أحمد. خذ أولَ ملاح ينحدر الساعة. فاقبض عليه. وسَلْه عن خَبَر المرأة التى قتلها اليوم وسلبها فأقم عليه الحد. وكان ما شهدتم][1].

إذا كان الشاعر يقول:

نعمُ الإله على العباد كثيرة   وأجلهن نجابة الأولاد

إذا قال الشاعر ذلك.. فإن الأعظم من نجابة الأولاد: نعمة التوفيق.. التى كانت ذلك الإلهام.. الكاشف حجب الظلام!

ويا لثمارها اليانعات عند ما تكون حليفة المسؤول القيادى.. والتى تصحبه حتى فى منامه.. حين يجيئه الهاتف.. فيفزٌعه.. ليرى بنور الله تعالى مالم ترعيناه. ولم تسمع أذناه..

ثم يفتح الناس أعينهم ذات صباح ليروا من توفيق الله لحاكمهم.. أن جعل له نورا يمشى بين يديه. يكشف أمامه المجاهيل. فإذا هو الدَّيدبان اليقظ.. المشمول برعاية الله.. وما يترتب على ذلك من رهبة تكف بأس المجرمين.. بقدر ما تكون أمانا فى قلوب المؤمنين.. وكذلك كان المعتضد رحمه الله تعالى:

لقد ألهمه الله تعالى فى منامه ما فزعه.. فهب من نومه مذعوراً.. آمراً بإحضار المعتدى الأثيم.

من أسرار الموقف:

لماذا ذُعر الخليفة؟ ولماذا صرخ بالخدم قائلا: ويحكم.. ثم أمر بسرعة إحضار المتهم؟ وما سر هذه الصيحة العظيمة فى وجهه حتى كاد قلبه أن ينخلع من

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ج/١١/ ٩٤ وما بعدها بتصرف يسير.

صدره؟ ثم.. لماذا سرعة التحقيق والفصل فى القضية على هذا النحو؟

إنه الاحساس العميق بفداحة ما حدث.. والنابع أساساً من تقدير المعتضد لحياة الإنسان.. وكرامة الإنسان.

والفرارُ من العدل البطيء الذى يبرد معه الإحساس بما صنع المجرمون.. إلى السرعة الخاطفة.. الخاطفة.. القاطعة رأساً هدم بنيان الله تعالى فى الأرض فأين كانت مروءته إن غاب إيمانه..

تلك المروءة العاصمة من قتل امرأة عزلاء لا تملك الدفاع عن نفسها.. لقد استجاب الرجل لطبيعته كما قيل ـ ففاض إناؤه بالذى فيه:

وما فى إنائه إلا الطيش والغرور. والجبن... وما فى يده إلا السلاح يروِّع به الآمنين.. وما فى ضميره إلا الاستهانةُ بالعرض والشرف.. وليس له من القوة إلا العدوانٌ على الأطفال والنساء. والعجائز.. وتمضى الأيام.. وتتبدل الوجوه.

ولكن السنّة هى السنة.. والطبع هو الطبع: كلٌّ فى الحماقة سواء..

فهذا واحد من رفاق السوء يرتكب اليوم جريمة من نفس النوع.. يهجم على أمٍّ مَدّت إليه يد المعونة.. فيخنقها.. ويخنق أطفالها.. إنه يريد أن يسرق.. فلماذا يقتل ذات المال؟

وإذ تسول له نفسه أن يقتل الأم التى تقاومه.. فكيف بزغب الحواصل.. كيف يقطف زهورا تفتح للحياة؟ بلا ذنب ولا جريرة؟

إنه مجرم يفكر بعقل جيبه.. لا بالعقل الذى فى رأسه.. ولو فكر به لما حاول الهروب من عيون الرقباء من البشر.. ثم ذُهِل عن رقابة رب البشر سبحانه.. والذى رآه.. ثم أرداه!!

المعتضد يطل علينا:

ولقد هبت على امتنا من عبق الماضى رياح كان بها قضاؤنا عند حسن الظن به. حين قرر سرعة الفصل فى القضية كما فعل الخليفة من قبل.. إيماناً منه بما تحققه السرعة من قطع دابر الفتنة.

سلامة إجراءات التحقيق:

لقد نجد الفارق واضحا بين موقفين للخليفة الداعية:

فبينما رآيناه يلاطف الخياط الذى لجأ للأذان فى سجوة الليل.. بينما يواجه هذا المجرم بالويل والثبور فى قوله: ويحك يا ملعون..

ثم فى صيحته تلك العظيمة فى جهة.. ثم تهديده بضرب عنقه إن أنكر الحق..

إنها الهيبة التى تحمل الجانى على الاعتراف.. الاعتراف مختاراً.. وتلقائيا.

إن الحاكم هنا يمسح الجراح.. ثم يلعن الجرّاح!! نكالا لما بين يديه ومن خلفه.. حتى لا يعيد التاريخ نفسه!

عدالة الجزاء:

ويجىء الجزاء رادعا.. ومن جنس العمل.. إعداماً بالغرق.. وفى نفس المكان.. الذى أغْرَق فيه الضحية.

وهذا هو الجزاء الذي اصطلح عليه الفكر الإنسانى مهما اختلفت الأوطان.. وتنوعت الأديان.. والذى لابد أن يكون رادعاً..

ذكروا أن قاضياً ـ فى دولة أجنبية ـ حكم على سائق الحافلة بمبلغ ضخم من المال.. لأنه لم يقف.. فكان سبباً فى بتر ساقى عابر طريق..

وقال الشاب المقطوع للقاضى:

لا تُهمنى ضخامة المبلغ ولكن الذى يهمنى أن يسجن السائق المستهتر سبع سنوات فقط.. ليذوق معنى القيد الذى أذوقه الآن.. وإلى الأبد!

وهو نفس الموقف المشتق من موقف العالم الذى استفتاه الخليفة فى كفارة عليه.. فأشار عليه بإطعام ستين مسكيناً.

لكن عالماً آخر استلهم روح الردع فى الإسلام فقال له:

بل إنَّ كفارتك الصوم.. لأنه إذْ يذوق بالصوم معنى الحرمان.. فلابد منه جزاءً رادعاً..

وإلا فما يُنفقه من الإطعام.. لا يكلفه شيئاً لأن خزانته ملأى!!

ولله در المعتضد..

وسيبقى لَحْدُهُ كما قالوا:

[تمر عليه الأجيال الآتية.. الأجيال الحرة العزيزة فتذكر جهاد أسلافنا. وتعرف الثمن الذى دفعوه.

ولتعلم أن القوة إن غلبت الحق حينا.. فإن الحق يصنع القوة التى يَغْلِبُ بها دائما].

أبرياء داخل القفص

تحدثنا فى موضع سابق تحت عنوان «مجرمون خارج القفص» ومنهم أولئك الذين افتروا حديث الإفك . .

وقد تداعت المعانى . . حين زودتنا ذاكرة التاريخ بمواقف من نفس النوع . . يحاول المغرضون فيها تشويه المؤمنين . . والمؤمنين بالذات . . نذكرها . . ونحن على وعى كامل بأن المؤامرة مستمرة . . الأمر الذى يفرض علينا الاحتفاظ لهذه القمم بحقها فى التقدير والاحترام كفاء ماقدمت لأمتها ودينها . . وقبل هذا . . وفوق هذا . . خوفا من أن نقف بأنفسنا موقف المحارب لله سبحانه وتعالى . . وهو الذى تكفل بحماية أوليائه . .

قال عبد الملك بن مروان «للعجاج» الشاعر : بلغنى أنك لاتحسن أن تهجو؟! فقال : من يقدر على تشييد أمكنة . . يمكنه إخرابها!!

فقال له الخليفة : وما يمنعك من ذلك؟ قال : إن لنا عزا يمنع أن نُظلم . . وحلما يمنع أن نَظْلم . . فعلام الهجاء؟!!

فقال له عبد الملك : كلامك أشعر من شعرك!!

وأنت واجد نفسك أمام شاعر عف اللسان . . لايهجو أحدا . . بما فيه . . أو بما ليس فيه . فعزته المشتقة من قومه الأعزاء مانعة من أن يظلمه أحد . . كما أن سجية الحلم فيه حائلة بينه وبين أن يقع فى غيْره . . حين يسىء إليه . . ولهذا . . فهو لايسف فى الخصام . . ولافى الكلام .

ولكن الناس . . لم تتوفر لهم جميعا هذه الحصانة المكتسبة . . أو الفطرية . . ومن ثم يكون الظلم . . والخصام . . والاتهام . . حيث لاعاصم من قبيلة . . ولا من فضيلة . . وقد تتوفر الحصانة المانعة . . لكن فريقا من الناس يأبى ألا أن يتخصص فى مهاجمة القمم!!

عثمان رضى الله عنه :

مر واحد من الفتَّانين على نفر من قريش فسأل : أيكم الشيخ؟ [يعنى من يُرجع إليه]

فقالوا: هذا . . وأشاروا إلى ابن عمر رضى الله عنه .

فقال له الرجل: يا ابن عمر: إنى سائلك عن شئ؟ فقال له: ماهو؟

قال الرجل: هل تعلم أن عثمان فرّ يوم أحد . .

قال ابن عمر : نعم. . . فقال: هل تعلم أنه تغيّب يوم بدر؟. . . قال : نعم . . فقال: هل تعلم أنه تغيّب على بيعة الرضوان؟. . قال: نعم . . فقال الرجل: الله أكبر!! [قالها فرحا بالطعن ونجاح الخطة]

وقبل أن يستخف الفرح الرجل أمسك به ابن عمر قائلا له: تعال . . أبيّن لك

١ـ أما فراره يوم أحد . . فأشهد أن الله غفر له . . وذلك قوله تعالى: ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور رحيم﴾(١) .

٢ـ وأما غيابه عن بدر. . فقد كانت زوجته رقية مريضة . . وتخلف ليكون معها. وبإذن من رسول الله ﷺ .

٣ـ وأما غيابه عن بيعة الرضوان :(فقد ضرب الرسول بيده اليمنى على اليسرى . . نيابة عنه) .

ومع هذا الدفاع الصادق من ابن عمر. . عن خليفة رسول الله . . فقد قتل عثمان ظلما وعدوانا . .

وقالت عائشة رضى الله عنها تنويها به : إنه صهر رسول الله ﷺ مرتين . . وما علمنا خلقا تزوج ابنتى نبى قبله غيره . . أما والله : لقد حاط الإسلام وأكده . . وعضّد الدين وأيده . . وقد هدم الله تعالى به صياصى أهل الشرك . . وهدم أركان الكفر . . لله . . إن المصيبة فيه . . ما أفجعها. . والفجيعة فيه . . ما أوجعها !!

وهكذا . . يحاول المغرضون التشويش على القمم. . وياله من عزاء تسوقه

---

(١) آل عمران : ١٥٥ .

الأقدار . . حتى إذا علم المتهمون ظلما . . كان ذلك عزاء لهم وسلوى .

فإذا كان المتهم عثمان رضى الله عنه بالذات . . كان العزاء بردا وسلاما . . ويكفى عثمان رضى الله عنه تقدير الرسول الكريم له . .

أ ـ ذات يوم كان ﷺ جالسا يمد رجله المكشوفة . . فلما دخل أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . . بقي الرسول كما هو . . في تبسطه . .

فلما دخل عثمان . . ضم رجله . . حياء منه .

فلما سئل قال: **«ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة ؟!!»**

ب ـ وفي موقف آخر :

قال ﷺ: **«وددت أن بعض أصحابى هنا .. فأشكو إليه»**

فقيل : نأتيك بأبي بكر ؟ قال: **«لا»** . . نأتيك بعمر ؟ قال: **«لا»** . . نأتيك بعلى ؟ قال: **«لا»** . .

فجيء له بعثمان . . فأخذ يناجيه . . ووجه عثمان يتلون!

والمغيرة بن شعبة :

استعمل عمر رضى الله عنه. المغيرة بن شعبة رضى الله عنه . . على البحرين . . فكرهه الناس . فعزله عمر.

ولم يقتنع الناس هناك بعزله . . فصمموا على إحكام الخطة حتى لايعود إليهم مرة أخرى .

ومن ثم . . دبّر «دهقانهم» [والدهقان: الرئيس]. دبر حيلة : فجمع مائة ألف. ثم ذهب بها إلى عمر قائلا: إن المغيرة أخذ هذا المال فدفعه إليّ .

فقال المغيرة لعمر: كذب . . أصلحك الله . . إنما كانت مائتى ألف .

فقال له عمر: ما الذى حملك على هذا؟ قال: العيال . . والحاجة !

فقال عمر للدهقان . . ماتقول : قال : لأصْدُقَنَّك :

مادفع إلىّ قليلا . . ولا كثيرا .

وقال المغيرة: الخبيث كذب عليّ .. فأردت أن أخزيه !!

وإذا نجح دهاء المغيرة رضى الله عنه فى فضح مكايد المغرضين. فما أكثر الغافلين الذين كانوا غرضا لسهام الماكرين .. ولكن الله خير الماكرين.

الصائدون في الماء العكر:

وعلى شاكلة هذا الذى سأل ابن عمر رضى الله .. ذلك الذى سأل عبد الله ابن المبارك رحمه الله:

أيهما أفضل .. معاوية .. أم عمر بن عبد العزيز؟

فقال ابن المبارك: والله .. إن الغبار الذى دخل فى أنف معاوية مع رسول الله ﷺ أفضل من عمر بن عبد العزيز .. بألف مرة !!

لقد صلى معاوية خلف رسول الله ﷺ .. فقال رسول الله ﷺ: «سمع الله لمن حمده» فقال معاوية: «ربنا ولك الحمد».. فما بعد هذا ؟!!

ولاحظ شدة لهجة ابن المبارك فى الرد .. حين لايكون هناك بديل عنها ..

وابن عمر رضى الله عنه:

تبجح الحجاج يوما وقال لابن عمر رضى الله عنه:

[بلغنى أنك تطلب الخلافة. ولايصلح لها عيىّ. ولا بخيل]

وإذا لم تستح فقل ماشئت .. وافعل ماشئت ..

وقد قال الحجاج ماشاء .. ولكن الحقيقة شىء آخر:

لقد كان ابن عمر كريما سخيا .. لدرجة أنه كان يتصدق بكل مايعجبه: وكان عبيده يتنافسون في الصلاة والصيام .. ليرضى عنهم .. فيعتقهم.

وهذا هو الذى حدث بالفعل .. فقد أعتق من عبيده ألفا !

ومن تواضعه وإنسانيته أنه لم يكن يأكل إلا مع يتيم.

ومن بره: مارواه عبد الله بن دينار قال: كان لابن عمر رضى الله عنه حمار يتروّح عليه. وعمامة يشدّ بها رأسه... وبينما هو ذاهب يوما إلى مكة على هذا

الحمار إذ مرّ به أعرابى.

فقال ابن عمر: ألست ابن فلان ابن فلان؟

قال: بلى.

فأعطاه الحمار. وقال له: اركب هذا ... والعمامة: اشدد بها رأسك .

فقال له بعض أصحابه : غفر الله لك!! .. أعطيت هذا الأعرابى حمارا كنت تروّح عليه. وعمامة كنت تشد بها رأسك؟!!

فقال ابن عمر: إن أباه كان صديقا لعمر بن الخطاب.

فانظر كيف يتهم الشرفاء بما ليس فيهم ... وتجيء التهمة ممن هم أحق بها وأهلها .

ويبقى العابثون فى ريبهم يترددون .. يتنادون بالإثم والعدوان .. واتهام الأبرياء ... وإن أحدهم ليحمل فى كيانه قلبا محشوا بالحقد ..

فلماذا لايموت ؟!

لا يموت .. لأن الأفعى تحمل السم فى رأسها .. ولا تموت!

وهو صورة من صور البلاء .. لاسيما عندما يعرض نفسه كالسلعة البائرة .. يبيع ذمته لمن يدفع أكثر .. وفى النهاية .. يكون من الأخسرين أعمالا :

إنه شاهد الزور الذى يرفع رأس الظالم على خصمه المظلوم لحظة .. لكنه سيضعها تحت قدمه .. وإلى الأبد .

أعظم البلاء :

وأعظم البلاء أن يسلط عليك واحد من هؤلاء :

إنه كما قيل بحق:

ليس له صاحب فى السر .. ولا عدو فى العلانية

حاولت أن أكرهه .. فلم أستطع.. وحاول أن يحبنى .. فلم يستطع

إنه أسوأ الناس :

يعتزله الناس .. لسوء خلقه.. ويعتزلهم هو .. لسوء ظنه ..

وسوف يكون الجزاء رادعا في النهاية : سيظل وحيدا .. فالمجتمع المسلم ينفي خبثه .. وسوف يعيش وحيدا .. وليست وحدته ألا يزوره أحد .. ولكنها الوحدة التى لايجد بها من يزوره ؟!!

موقف العقلاء :

وللعقلاء من المؤمنين منهجهم الراشد .. المانع من سوء الظن .. بل كانوا يقابلون سوء الظن بالإحسان .

قيل لفيلسوف حكيم : فلان ابن فلان ـ من الوضعاء ـ يشتمك بالغيب . فقال: لو ضربنى بالسياط فى الغيب .. لم أبال به !

ولما قال المتوكل لأبى العيناء: مابقى أحد إلا اغتابك. قال:

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى　　　فلا زال غضبانا علىّ لئامها

وقال الواثق لأحمد بن أبى داود: فلان يقول فيك كذبا .. فقال: الحمد لله الذى أحوجه إلى الكذب فىّ. ونزهنى عن الصدق فيه .

وذات يوم .. تأثر الصحابة لما أعطى رسول الله ﷺ ناسا . وترك آخرين. فقال ﷺ : «لأنى لأعطى وأمنع وما أمنعه أحب إلىّ ممن أعطيه .. وأكله إلى مافى قلبه من غنى».. ومنهم عمرو بن تغلب .

فقال عمرو على الفور: والله ما أحب أن لى بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم

واجب المسلم:

واجب المسلم يحدده ماروى عن سعيد بن المسيب رضى الله عنه. قال:

[كتب إلىّ بعض إخوانى من أصحاب رسول الله ﷺ: أن ضع أمر أخيك على أحسنه. مالم يأتك مايغلبك ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا. وأنت تجد لها فى الخير محملا...] .

ثم يوضح واجب المسلم حتى لايكون هدفا للاتهام .. فقال: ومن عرّض

نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه . ومن كتم سره كانت الخيرة فى يده . . .وما كافيت من عصى الله تعالى فيك . . بمثل أن تطيع الله تعالى فيه .

الطرف الثالث :

وأعنى به من يسمع التهمة تسدد إلى أخيه المسلم وهو منها براء ولكنهم يسكتون .

ونقول لهم: إن واجبهم الدفاع . . أو مغادرة المجلس غاضبين . .

حق الحيوان .. وحق الإنسان :

لقد تعلمنا من القرآن الكريم . . ومن السنة المطهرة كيف دافع الإنسان . . عن الحيوان . . وكيف دافعت الحشرة . . عن الإنسان .

فى غزوة الحديبية . . خلأت القصواء [ناقته عليه الصلاة والسلام] من غير علة فيها . فقال الصحابة : خلأت القصواء . . خلأت القصواء (يعنى: حَرَنَتْ ورفضت المشى) فقال ﷺ مدافعا عنها:

«والله ماخلأت القصواء .. وماذاك لها بخلق»[1] .

إنه ﷺ يدافع عن بهيمة اتهمت ظلما . . لأن الظلم مرتعه وخيم . . ولو على البهائم. فكم يكون حق المسلم على المسلم إذا اتهم ظلما . .

ولقد التمست النملة وهى حشرة ضئيلة ـ التمست العذر للإنسان فيماحكاه القرآن الكريم على لسانها: **﴿لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون﴾**[2] .

عزاء وسلوى :

١ ـ ومما يتعزى به الأبرياء علمهم بأن رسولهم ﷺ لم يسلم من غمزات الشياطين. . شياطين الإنس. ففى غزوة حنين تبجح ناس فقالوا عن قسمته ﷺ [والله إن هذه قسمة ماعدل فيها . وما أريد فيها وجه الله]؟!!

ومتى قيل هذا الباطل؟

---

(١) أخرجه البخارى رقم (٢٧٣١) كتاب الشروط .

(٢) النمل : ١٨ .

فى حنين . . وقد كان عندئذ . . كما أشار الباحثون:

أولا: كان نبيا ورسولا .

وثانيا: وبعد مضى ثمان سنوات من هجرته، واشتهاره بالعدل الذى شهد به الأعداء .

وثالثا: بعدما مكن الله له فى الأرض . . ولكنها الشياطين تستخف ناسا . . وتؤزهم إلى الشر أزا .

٢ ـ ومما يتعزى به الأبرياء أيضا تلك النصيحة التى تقول: لأن تكون مظلموا يرجو الثواب . . خير من أن تكون ظالما ينتظر العقاب !

وقد يشتد إحساسك بالظلم . . فى الوقت الذى يتمادى الظالم فى غيه . .

وإذن . . فأنت مكلف أن تكون عند حسن ظن الناصحين الذين يقولون لك: عليك بالرضا . . والتسليم لله الذى سوف ينتقم لك. . فما دمت أيها الإنسان لاتملك مفاتح الغيب . . ومادامت قدرتك عاجزة عن التحكم فى أحداث الحياة التى تناوشك . . فأنت مطالب برجع أمورك كلها إلى ربك . العليم . . القادر سبحانه . . ليمنحك بهذا التسليم قدرة على تكييف علاقاتك بالناس من حولك. . فإذا أنت من الطمأنينة على أوفى معانيها . .تريح نفسك . . راحة تجعلك أقدر على الإفادة من هذه الأحداث على قدر استطاعتك .

كما يأخذ المجتمع حظه من راحة أتحتها له حين طوّعت علاقتك به . . ولم تصادمه! . . ثم أسهمت فى رسم الصورة العامة للامحه المطمئنة . .

إن الأحداث قد تكون أكبرمن طاقاتنا . . وإذن فنحن مأمورون بالصبر الجميل. . الجميل . . الذى لايعنى الخمول والاستسلام للظلم . . وإنما هو على مايقول الباحثون:

يصف القرآن الكريم «الصبر» فى أكثر من آية بأنه «الصبر الجميل». ووصف الصبر بالجمال هو من روائع الأوصاف فى أدب القرآن، بل فى أدب العالم كله. فالصبر الجميل يقدم إلينا صورة للإنسان عندما يكون متألما فى داخله ومع ذلك يحتفظ وجهه ـ رغم الألم ـ بالبشاشة والسماحة وبذلك تكون البشاشة والسماحة

مع الألم المكتوم فى النفس هى الجمال ويكون الصابر الذى يتألم ويتحمل آلامه هو: الجميل. وتكون صورة «الصبر الجميل» هى الصورة الرائعة التى تمس أعماق القلوب .

ولاشك أن القادرين على الصبر الجميل هم القادرون أيضا على مواصلة الحياة والوقوف فى وجه متاعبها وآلامها ومفاجآتها الكثيرة. أما الذين لايملكون القدرة على الصبر. ولايملكون تلك الموهبة الفطرية الإلهية التى تجعل من صبرهم «جميلا»فإنهم ينكسرون بسرعة ويخسرون معركتهم فى الحياة بيسر وسهولة .

وقد يبدو أن الصابرين هم من «البشر الضعفاء» فى نظر الذين يصدرون أحكاما شكلية سريعة على الناس فالصبر عند البعض هو فلسفة يؤمن بها كل إنسان قليل الحيلة، ليس لديه مايواجه به حوادث الأيام إلا بالصمت والألم المكتوم.

ولكن الحقيقة ليست كذلك فالصابرون ليسوا ضعفاء بالصورة التى يتخيلها البعض، وهم ليسوا عاجزين عن «التمرد» بل هم قادرون عليه عند الضرورة، وعندما تأتى هذه الضرورة يكون «تمرد الصابرين» قويا مثل «غضب الحليم» .

كان قيصر «١٠٢ ـ ٤٤ قبل الميلاد» أعظم أباطرة الرومان يقول عن أحد رجاله مامعناه: «إنه نحيف وهو لايأكل كثيرا، وهو طويل الصمت. لايتكلم إلا كلمات قليلة. وكثيرا ماتبدو على وجهه علامات التفكير والتأمل ولذلك فأنا لاأخاف من أحد كما أخاف من هذا الرجل» .

أى أن هذا الرجل الضعيف النحيف الصبور الذى لا يأكل ولا يتكلم كثيرا كان مصدر خوف وقلق من جانت أقوى حاكم عرفه التاريخ القديم وهو «قيصر». وقد صحت مخاوف «قيصر» التى أحسها بقلبه ولم يكن لديه عليها أى دليل. فكان هذا الرجل النحيف البسيط فى طعامه وحديثه هو العقل المدبر للمؤامرة التى انتهت بمقتل قيصر فى مجلس الشيوخ، عقابا له على قراره بتحويل الديمقراطية الرومانية إلى نظام امبراطورى يقوم على الطغيان والحكم الفردى .

والذين يتصورون أن «الضعفاء» و «الصابرين» لا حيلة لهم، هم من أصحاب

القلوب «الفظة الغليظة» الذين لايمكنهم تحقيق أى نجاح يدوم .

المحبون العقلاء وأصحاب العواطف الإنسانية وحدهم، هم القادرون على جمع الصفوف وتحقيق العدل والاستقرار، وفهم النفوس والقيادة الناجحة حتى آخر الطريق . . ولو طال بهم المسير . والحياة تعلمنا بتجاربها العامة والخاصة دائما: أن «الصبر الجميل» يخفى وراءه قوة كامنة فيه، وأن الضعف الذى قد يكون ظاهرا فى الناس هو فى حقيقته «قوة أخرى» مقلوبة على رأسها، وحين تعتدل، فإنها تنفجر .

والحياة تقول لنا، سرا وعلانية: أنه حتى العميان . . يبصرون:

والقلب الإنسانى بحاجة إلى تربية وتوعية وغذاء روحى صحى، فليس بالعقل وحده يمكن فهم أسرار الحياة وعجائب الدنيا، ولابد للقلب أيضا أن يعمل أيضا بقوة وهمة ونشاط . . . فالقلوب العاملة النشيطة التى تنبض بالرحمة والحنان واللطف، هى التى تساعدنا على أن نرى في حياتنا العامة والخاصة ما لاتراه العيون . . وبدون هذه القلوب فإننا نضل. وأكبر الضلال هو أن نعجز عن رؤية القوة التى فى «الصبر» والقوة التى فى «الضعف» وأن نحسب الصابرين والضعفاء مستسلمين راضين، لايطلبون ثأرا ولا حسابا فى ماأصابهم. . والحقيقة أنهم في أعماقهم يطلبون العدل. ومن رحمة الله بالصابرين والضعفاء أن أحدا من الظالمين لايستطيع أن يتنبأ باليوم الذى فيه يغضبون .

الصبر ـ الأجمل :

إذا قال علماؤنا: الصبر الجميل هو الذى لاشكوى معه . . فقد كان هناك صبر أجمل . . هو ذلك الذى لا يكتفي فيه المظلوم بالكف عن الشكوى . . وإنما كان من الجمال بحيث كان يدعو لظالمه بالمغفرة . .وكذلك كان أحمد بن حنبل رضى الله عنه.

لقد ضرب فى فتنة القول بخلق القرآن . . ضرب ضربا لو ضربه الفيل لصرخ!!

روى ابن حبان بسنده فى روضة العقلاء قال:

[كان لنا جار ببغداد. كنا نسميه: طبيب الفقراء. وكان يتفقد الصالحين ويتعاهدهم. فقال لى: دخلت يوما على أحمد بن حنبل فإذا هو مغموم مكروب. فقلت: مالك يا أبا عبد الله؟ قال: خير. قلت: ما الخير؟ قال: امتحنت بتلك المحنة. حتى ضُربت . ثم عالجونى وبرأت. إلا أنه بقى فى صلبى موضع يوجعنى. . هو أشد علىّ من ذلك الضرب. .][1] .

ورغم فداحة العلة. إلا أنه وفى لحظة الألم كان يدعو لمن ظلمه قائلا : اللهم اغفر للمعتصم . .

وكلما حاول الطبيب قطع الجزء الميت من جرحه كان لايزيد على قوله: اللهم اغفر للمعتصم!!

ثم هدأ وسكن، وقال له الطبيب وهو يحاوره: يا أبا عبد الله: إن الناس إذا امتحنوا محنة دعوا على من ظلمهم . . ورأيتك تدعو للمعتصم قال: إنى فكرت فيما تقول . . وهو ابن عم رسول الله ﷺ، فكرهت أن آتى يوم القيامة وبينى وبين أحد من قرابته خصومة . . فهى منّى فى حل!!

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إن الله تعالى قال: من عاد لى وليا فقد آذنته بالحرب. وماتقرب إلىّ عبدى بشىء أحبُّ إلىّ مما افترضته عليه. ومايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبَّه فإذا أحببته: كنت سمعه الذى يسمع به . وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها. ورجله التى يمشى بها . وإن سألنى أعطيته. ولئن استعاذنى لأعيذنه][2] .

[استعاذنى أو استعاذ بى]

وفى رواية : «وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس عبدى المؤمن: يكره الموت. وأكره مساءته».

(١) روضة العقلاء : ١٦٤، ١٦٥ .

(٢) رواه البخارى .

تمهيد

إذا كانوا يقولون: عدد العدو . . حبيب . . فإنهم يقولون ـ وبنفس القوة ـ وعدو الحبيب عدو . .

ومن أجل ذلك كان عدو من أحبه الله . . عدوا لله تعالى . . ذلك بأن من عادي حبيب الله فقد كره من أحبه الله . . ومن كره من أحبه الله . . فقد خالف الله سبحانه. . ومن خالف الله تعالى. . فقد عانده. . ومن عانده. . أهلكه. . يهلكه الله تعالى مهما كان منصبه. . وجاهه. . وقوته. . لأن التعبير. . بمن . . والتى تدل على العموم. . يشير إلى القادرين على الإيذاء . . مهددا لهم: بأنه لا المنصب ولا الجاه ولا القوة . . كل أولئك لن يحميك من بطش الله ولا من بأسه إذا جاء .

والمعاداة تعنى: أن يتخذ ظالم من المؤمن موقفا ثابتا . . فهو له بالمرصاد . . قاعد له بكل سبيل . .

وهناك رواية تقول: «من آذى لى وليا» . . ويعنى ذلك أن المعادة ـ وهى أصعب ـ ليست وحدها التى يستنزل بها المظلوم ولاية الله الحق .

ولكنه حتى إذا تعرض الولى للأذى. . بنظرة . . أو حركة . . أو كلمة . . فإن ربك للمؤذى بالمرصاد .

من هم الأولياء :

وطبعى أن يكون المستحق لهذه الولاية . . وليا لله حقا . . فليست هى الولاية المزعومة . . وإنما هى الولاية المكلفة . . على مايقول تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾[1]

والدعاوى إن لم تقيموا عليها بينات فأصحابها أدعياء

وإذا كان الله تعالى وليا للبشر جميعا كما جاء في قوله تعالى: ﴿ثم رُدوا إلى الله مولاهم الحق﴾ فإن الحديث هنا يشير إلي الولاية الخاصة الآنفة الذكر فى سورة يونس. . إن الخلق كلهم فى قبضة الله تعالى . . ولو سولت لهم أنفسهم وشياطينهم أن يخالفوا الأمر الشرعى . . فلن يقدروا على مخالفة الأمر الكونى. . وإلا . . فليدفعوا عن أنفسهم . . الشيب . . والليل . . والمرض . .

---

(١) يونس : ٦٢، ٦٣ .

مغزى العقاب :

من عادى لله وليا .. فقد آذنه بالحرب .. وإذن فهو مهزوم سلفا .. ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ومن جنود الله: المرض.. والقلق .. والهم .. والحزن..

المتقون فى الحصن الحصين :

فى سورة يونس ترى عجبا .. ترى كيف بدا المتقون فى كنف الله تعالى الذى لايضام ..

فالآية الثانية والستون .. إلى الآية الرابعة والستين.. تتحدث عن كرامة أولياء الله تعالى .. ومن قبل تقرأ الآية الحادية والستين: ﴿وما تكون فى شأن..﴾ الآية وبعدها الآية الخامسة والستون: ﴿ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا﴾.

وتأمل هذا لتدرك كيف كان علم الله تعالى محيطا .. ثم كيف تقف عزته الشماء لاتغالب ..

وبين هذا العلم المحيط .. وهذه القدرة القاهرة.. يعيش المتقون فى الحصن الآمن ..

وإذا كان هذا مصير من يؤذى وليا .. واحدا .. فكيف بمن يؤذى أمة .. لاتخلو أبدا من أولياء عاملين بشريعة الله تعالى .. كيف به وقد صار جرمه مضاعفا .. حين هدد أمنها .. ودمر اقتصادها.. ونزف الدم من شرايينها؟!

إن فى هذه الأمة .. فلاحين .. وصناعا .. وعمالا .. آمنوا .. وكانوا يتقون .. فمن آذاهم .. فقد أعلن الله بالحرب ..

شبهة وردها :

ربما كان هناك ظالم يتمادى في إيذاء أولياء الله تعالى .. ثم لاترى أن الله عاقبه!.. وهذا صحيح .. ولكن وعد الله بنصرة أوليائه لن يتخلف ..

وقد يسلم للظالم ماله .. وجاهه .. ويبدو مطلق السراح يفعل مايحلو له.. ولكن المصيبة قد تكون أفدح من ذلك..حين تصيبه فى مقتل..فى دينه .. فينطلق على هواه.. ولا يحس بالعلة تسرى فى قلبه ..

يقول علماؤنا ..

[إذا أراد الله بعبده الشر أمهل له . واستدرجه. وأدرّ عليه النعم ودفع عنه

النقم. حتى يبطر ويفرح فرحا مذموما بما أنعم الله به عليه .

وحينئذ يلاقى ربه وهو مغمور بسيئاته فيعاقب بها فى الآخرة]

فانظر كيف يتهم الشرفاء الأصفياء بما ليس فيهم . .

فإذا رحت تسأل عن السبب . . وجدته على لسان عمر رضى الله عنه والذى قال يوما: [ما من أحد عنده نعمة . . إلا وجدت له حاسدا . . ولو كان المرء أقوم من القدح . . لوجدت له غامزا]!!

وسعد بن أبى وقاص خال رسول الله ﷺ:

قال محدِّثى : رغم صحة قولنا: إن المتهم برىء حتى تثبت إدانته . . فإننا نؤمن أيضا: بأنه ليس هناك دخان بلا نار: بمعنى أنه لابد من نسبة من الشك . . وأن التهمة مهما كانت لا تنشأ من فراغ !!

وقلت لصاحبى: ورغم صحة قولك . . فإنه قد يحدث أحيانا أن يكون هناك دخان . . ولكن بلا نار؟!

بمعنى أن يُتهم رجل شريف . . وهو برىء براءة الذئب من دم يوسف! بل ربما كان عكس مايقول المغرضون . .

ولقد كان من فقه عمر رضى الله عنه أن عزل سعدا . . وولى مكانه عمار بن ياسر رضى الله عنه . . وإذا كان قرار العزل شاهدا فى يد المغرضين على صحة مايقولون فقد كان على أوفى معانى الحكمة العمرية:

إن سعدا موضع تقدير الخليفة . . ولكنه مع ذلك يعزله . . فحقق بالعزل ما يلى كما لاحظ العلماء :

أولا : قطع دابر الفتنة فى الكوفة [وهذه مصلحة عامة]

ثانيا: حمى سمعة سعد من القيل والقال [وهذه مصلحة خاصة]

وإذن . . فقد كان العزل لصالحه .

تفصيل قصة سعد :

وفى قصة سعد بن أبى وقاص من شاهد على مانقول:

عن جابر بن سمرة قال:

شكا أهل الكوفة سعدا إلى عمر رضى الله عنه فعزله. واستعمل عليهم عمارا. فشكوا حتى ذكروا أنه لايحسن يصلى فأرسل إليه فقال: يا أبا إسحاق: إن هؤلاء يزعمون أنك لاتحسن تصلى.

قال أبو إسحاق: أما أنا والله فإنى كنت أصلى بهم صلاة رسول الله ﷺ. ما أخرم عنها ـ ما أنقص ـ [1].

أصلي صلاة العشاء. فأركُدُ في الأولَيَيْن. وأُخف فى الأُخْرَيَيْن. قال: ذاك الظن بك يا أبا إسحاق.

فأرسل معه رجلا، أو رجالا، إلى الكوفة.

فسأل عنه أهل الكوفة. ولم يدع مسجدا إلا سأل عنه. ويُثنون معروفا. حتى دخل مسجدا لبنى عبس، فقام رجل منهم يقال له: أسامة بن قتادة يكنى أبا سَعْدَةً قال: أما إذا نَشَدتنا.. فإن سعدا كان لايسير بالسرية. ولايقسم بالسوية ولا يعدل فى القضية.

قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث:

اللهم إن كان عبدك هذا كاذبا.. قام رياء وسمعة.. فأطِل عمره.. وأطل فقره.. وعرّضه بالفتن.

وكان بعدُ إذا سئل يقول: شيخ كبير مفتون. أصابتنى دعوة سعد.

قال عبد الملك بن عمير ـ:

فأنا رأيته بعد قد سقط صاحباه على عينيه من الكِبر. وإنه ليتعرض للجوارى فى الطرق.. يغمزهن !!؟

تمهيـــــد:

إذا كان لحم الإنسان بالغيبة ميتا.. فإن لحوم العلماء الذين تغتابهم تصبح لحما ميتا.. ومسموما..

---

(١) وروى بضم أوله. ـ البخارى ـ باب وجوب القراءة للإمام والمأموم برقم (٧٧٥).

فإن كانت القضية بهتانا .. وكان المبهوت صحابيا .. وكان هو بالذات سعد ابن أبى وقاص .. فإن الجريمة تبلغ ذروتها .

ذلك بأنه سعد رضى الله عنه .. والذى كان له من المآثر ما ينأى به عن الاتهام .. إنه سعد ... خال رسول الله ﷺ .. فاتح العراق .. والذى كان مستجاب الدعوة .. والذى عرّض نفسه للخطر فى أحد ففدى الرسول ﷺ ألف مرة .. إلى الحد الذى خصه الرسول بهذا القسم: **«ارم .. فداك أبى وأمى»** وخصه أيضا بهذه الدعوة المباركة : **«اللهم سدد رميته وأجب دعوته»** .

ثم هو مع هذا صحابى جليل .. واحد من كوكبة كالنجوم .. بأيهم اقتديتم اهتديتم ..

ومع ذلك يحاول المغرضون المراؤون النيل منه ..

إنها العلة القديمة .. الجديدة .

العلة المتوطنة فى قلوب عليها أقفالها :

فى هذه القلوب مايشبه القطران .. يريدون أن يلحظوا به الوجوه البيضاء .. لينسجم الخارج .. مع سوادهم فى الداخل .. يكرهون نسبة الفضل لأهله .. ويفزعون من النجاح يتحقق على يد الآخرين ..

ولأن قلوبهم مظلمة : فهم يودون لو حجبوا ضوء الشمس .. ونور القمر .. حتى يسود الظلام .. وعندئذ سوف يستريحون .. يستريحون .. لأن الساحة خلت من الأخيار الأبرار الذين يشكل وجودهم حجة عليهم .. آية بينه على قبحهم .. وهى علة تفرد بها الكافرون الذين قال تعالى فى شأنهم: **﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾** .

وهو الأمر الذى حدا بالأصفياء أن يطلقوها نفثه مصدور فقالوا:

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس .. روّى رمحه .. غير راحم

فلا هو مرحوم إذا ظفروا بـه ولا فى الردى الجارى عليهم بآثـم!!

وقفات وتأملات :

(١)

شكوى أهل الكوفة على مايكتنفها من علامات استفهام.. صورة من صور الشورى فى إدارة دفة الحكم .. والتى تجعل من الشكوى حقا مكفولا ..

(٢)

ويلاحظ هنا أن راوى الحديث هو: جابر بن سمرة .. يروى عن خاله سعد ابن أبى وقاص .. ومع ذلك فقد روى الموقف بأمانة وبلا حساسية وأن الحكَمَ هنا هو عمر .. ومع ذلك فلم يجامل خال رسول الله ﷺ .. على حساب الحق .. بل قرر بحث الشكوى ..

ولئن كان لعمر حكمته الضابطة التى لاتجامل .. فما أجمل الفتى .. جابر ابن سمرة .. بل ما أكمله حين ضبط أعصابه فروى الموقف .. متجاوزا غمرة الحماس .. لأن الأجهزة الصغيرة من شأنها أن تسخن بسرعة وبشدة .. لتقاوم كل من يؤذيها فى مشاعرها .

إن للمجاملة مساحة .. ولكن لن تكون على حساب الحق ..

الحق الذى يرفض تحكيم العواطف .. أو تحكمها .. بحيث يتراجع العقل الذى كان من تكريمه أن نرتفع به فوق انفعالاتنا .

(٣)

فحوى الشكوى:

تتلخص شكوى أهل الكوفة فى أمور :

١ ـ أن سعدا رضى الله عنه. حابى بعض الناس فى خمس باعه ..

[يعنى أعطى تسهيلات غير مشروعة فى صفقة قومية] .

٢ ـ صنع على باب داره بابا مبوّبا من خشب .

٣ ـ كان السوق قريبا من داره . فكان يتأذى من أصوات الناس . ومن ثم ينهرهم .

٤ ـ كان الصيد يلهيه عن الخروج فى السرايا .

٥ ـ ثم هو لايحسن أن يصلى !

التحقيق :

وكان لابد من التحقيق الفورى . . وعلى الملأ . . ولم يكن حفظ التحقيق عندئذ واردا . . لا شكا فى ذمة سعد رضى الله عنه . . ولكن لمصلحة سعد نفسه . . بل لمصلحة المجتمع كله .

لقد كان عمر رضى الله عنه مقتنعا ببراءة سعد من كل ماوجه إليه بدليل أنه .

١ ـ تلطف به إذ ناداه: يا أبا إسحاق!

٢ ـ ثم قوله بعد ما سمع دفاعه عن نفسه : [ذاك الظن بك يا أبا إسحاق]

(٤)

موقف سعد :

ولقد غضب سعد رضى الله عنه غضبا شديدا . وقال للشاكى: أعلىّ تسجع

وروى أنه قال : أتعلمنى الأعراب الصلاة؟

وهذا دليل على أن الشاكين ليسوا من أهل العلم .

(٥)

المتهم يدافع عن نفسه :

بعد أن ذكر له الخليفة فحوى الشكوى . . غضب كما أسلفنا . .

لكنه بدأ يدافع عن نفسه قائلا: أما أنا والله . . فإنى كنت أصلى بهم صلاة رسول الله ﷺ: وكان لا تنقص منها شيئا .

فإذا صلى بهم العشاء مثلا . . فإنه: يركد فى الأوليين . . يطيل فيهما . . ويُخفّ فى الآخرين. فلا يطيل

ومع ذلك ما فيه من رعاية لطبيعة النفس الإنسانية . . والتى تكون فى مستهل

الصلاة موفورة النشاط . . ومن ثم فلا بأس من الإطالة . . فإذا فتر عزمها آخر الصلاة تجاوز الإمام . .

وهكذا كان أبو بكر رضى الله عنه فى وصيته ليزيد بن أبى سفيان . . أن يجعل نوبة الجندى الأولى أطول . . لقربها من النهار . . على أن تكون النوبة الثانية أقصر . . لأنها فى سجوة الليل . .

ولعله خص العشاء بالذكر - كما قال الحديث - لأن وقت العشاء وقت الراحة . . ومن ثم فمن أحسن فيها كان أحسن فى غيرها .

وأيضا خص الصلاة من دون ما اتُّهم به؛ لأن شهود الصلاة قائمون . . وسوف يشهدون . . أما بقية التهم فيمكن فيها المماحكة والمشاكسة والادعاء!

لجنة تقصى الحقائق :

وقد يسأل سائل: لماذا عزل عمر سعدا . . مع أنه قد بدا من حال الشاكين أنهم مغرضون . . حين ينكرون الشمس فى رائعة النهار . . وإذا كان الخليفة واثقا من صدق سعد رضى الله عنه . . فلماذا إذن يلجأ الخليفة إلى تشكيل لجنة تقضى الحقائق . . هناك فى الكوفة . . والتى لم تترك مسجدا إلا سألت أهله عن سعد . . الذين أجمعوا على براءته بل كانوا جميعا يثنون عليه خيرا. لقد كانت القضية محسومة . . فما سر العزل . . وما سر اللجنة؟

والجواب:

إن من حب عمر لسعد تشكيل هذه اللجنة . . لمصلحة فردية هى: إثبات براءة سعد على رءوس الأشهاد. ثم استهداف لمصلحة قومية عاجلة وهى قطع دابر الفتنة . . وتفويت فرصة الخوض بالحق وبالباطل.

مغزى تهم صاحب بنى عبس :

ولقد كان للتهم التى سردها . . أسامة بن قتادة . . مغزاها . . لقد كان فيها ما يشبه السم يسرى نكاية فى الصحابى الجليل:

فالتهمة الأولى وهى: أن سعدا لا يسير بالسرية . . كانت نفيا لشجاعته . .

وهذه ناحية نفسية . .

أما الثانية فكانت: ولا يقسم بالسوية . . وهى نفى للعفة . . وتلك ناحية خلقية . .

وأما ثالثة الأثافى فهى طعنة فى الدين حيث زعم أنه لا يعدل فى القضية . . .

وإذا كانت الدعوى الأولى والثانية ممكنتان . . فإن الثالثة مما لا يحسن السكوت عليه . . لأنها متعلقة بالدين . . والدين هو الحياة.

قسوة الظالم ورحمة المظلوم :

ولقد كان من حق سعد المظلوم أن يدافع عن نفسه وبقوة وقد يحمله الغضب لكرامته ودينه على تجاوز حدود الحوار لكن الرجل لم يفعل . . وكان بالظالم رؤوفا . . وكان معه عادلا . . . ومن رأفته . . من شفقته بالظالم أنه حين طلب عقوبته . . أرادها معجلة فى الدنيا . . حماية للظالم من عذاب الآخرة . . وهو أقوى وأخزى. ومن عدله أنه :

أولا : قابل الدعاء بمثله :

فدعا عليه: بطول العمر . . وهذه ناحية نفسية . . ثم بطول الفقر . . وتلك ناحية مالية . . ثم دعا أن يعرّض للفتن . . وتلك ناحية دينية . . ثم إنه يبلغ بالعدل . . وبالشفقة معا منتهاهما حين التمس له العذر فقال:

اللهم إن كان عبدك هذا كاذبا . . ويعنى ذلك أنه لم ينتصر لنفسه . .

ولكن انتصر للشريعة التى أوذى فيها واحد من خلّص مبلغها ﷺ . . فكأن التهمة عدوان على صاحب الشريعة ذاته . . لما أوذى صاحبه.

وليست القضية أن الرجل آذى سعدا . . بشحمه ولحمه لأنه خال رسول الله ﷺ: ولكن لأن القضية إيذاء للشريعة . .

(٩)

علامات على الطريق :

ويبقى الموقف دليلا على طريق الدعاة بما يسفر عنه من دروس أشار إليها

شراح الحديث. ومنها:

١ ـ إذا شُكى نائب الإمام. أرسل إليه يستفسره.

٢ ـ إذا خاف الإمام مفسدة باستمرار ولايته ووقوع فتنة .. عزله. وقد عزل عمر سعدا .. مع أنه كان بريئا من كل ما يقدح فى ولايته وأهليته.

وبدليل قول عمر يوما: إن أصابت الإمارة سعدا .. فذاك.. وإلا فليستعن به أيكم .. فإنى لم أعزله لعجز ولا لخيانة[1].

٣ ـ ذم الرأى إذا لم يكن له أصل . وقد حكى أنه من قال فى القرآن برأيه فقد أخطأ .. ولو قال صوابا.

٤ ـ يجوز مدح الرجل الصالح فى وجهه .. متى أمنت الفتنة.

٥ ـ مناداة الرجل بكنيته احتراما .. وتقديرا.

ولله در عمر رضى الله عنه:

إنه لم يركب موجة الاتهام مع الشاكين.. ولكنه تصرف بالحكمة الواقفة بالصحابى الجليل فى مكانه العالى: نجما يهدى الحائرين.

بقدر ما كان تصرفه الحكيم حماية للأصول أن تنال .. حتى لا تحرم الأمة من قياداتها..

ألا إنه إذا اتهمت أصولٌ لنا .. نحن فروعها .. فلن تبقى الفروع .. بعدما ذهبت الأصول ..

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

مغزى هذا التهجم:

أن الهجوم على القيادات المؤمنة يعنى فى منطق البصراء:

١ ـ الإسقاط: وهو رمى إنسان غَيْرَه بدائه .. لينجو من اللوم..

ولما كان أئمة الدين هم الذين ينهون عن المنكر .. ويأمرون بالمعروف فإن

---

(١) النووى.

المارقين يجدون راحة نفسية فى الهجوم عليهم .. لأنهم الذين يقلقون هذه الراحة بما يكشفون من طواياهم.

٢ ـ إبراز ضعف الإسلام عن صياغة شخصيات فذة صالحة لقيادة المركب .. بدعوى أن الإسلام لو نجح فى هذه الصياغة لكان أولى بهذا النجاح العلماء؟!!

[إن ربك لبالمرصاد]:

ويبقى الدرس الأكبر ... وهو:

أن الله تعالى يملى للظالم. حتى إذا أخذه لم يفلته.. وهاهو ذا سبحانه وتعالى يرى الناس فى الظالم عجائب قدرته فها هو ذا .. أسامة بن قتادة .. يبلغ من الكبر عتيا .. ومع ذلك يتعرض للجوارى فى الطريق فى جولات من العذاب .. يلقّاه ذلك العجوز المتصابى...

إن العجوز المتصابى بغيض فى حس الناس.. فكيف .. يا أسامة .. الذى لم يكن يملك أن يتصابى بعد أن سقطت حواجبه على عينيه؟!!

ألا وإن غضب الله لشديد على كل من تسول له نفسه المضى على ذات الطريق أرأيت إلى .. «أم أنمار» .. مالكة خباب بن الأرت الصحابى الجليل والتى كانت تكويه بالنار.. ،وبصهر الحديد الذى كان يحويه دكانه .. وشاءت إرادة الله تعالى أن يشتد بها المرض .. ويكون علاجها بالكى .. الذى تكفل به .. خباب نفسه..

ولقد كان عمر رضى الله عنه خير من يحكم فى هذه القضية .. لأنه هو شخصيا شرب من نفس الكأس يوما.

بين يدى عمر:

روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

«قدم عيينة بن حصن. فنزل على ابن أخيه «الحرّ بن قيس» وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضى الله عنه... وكان القراء أصحاب مجلس عمر رضى الله عنه ومشاورته: كهولا كانوا أو شبانا.

فقال عيينة لابن أخيه: يابن أخى: لك وجه عند هذا الأمر فاستأذن لى عليه.

فاستأذن .. فأذن له عمر .. فلما دخل قال: هى يابن الخطاب: [وهى كلمة استنكار].. فو الله ما تعطينا الجزل. ولا تحكم فينا بالعدل.

فغضب عمر رضى الله عنه. حتى همّ أن يوقع به.

فقال له الحر: يا أمير المؤمنين:

إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[1] وإن هذا من الجاهلين والله ما جاوزها عمر حين تلاها وكان وقافا عند كتاب الله تعالى»[2].

تعليق

لاحظ أولا شهادة ابن عباس رضى الله عنه ـ وهو من هو ـ لاحظ شهادته لعمر رضى الله عنه وكيف كان الرجل يحسن اختيار بطانته من قراء الصحابة الذين هم أولو العلم والنهى .. شبانا كانوا أم شيبا..

ولاحظ ثانيا من ثمار هذه الصحبة المباركة أن أحد مستشاريه وهو الحر بن قيس رضى الله عنه يذكره لحظة الغضب بآية من كتاب الله تعالى .. فلا يلبث أن يهدأ ويستجيب لها طائعا.. وكان عمر رضى الله وفاقا عند كتاب الله تعالى..

وكانت سرعة استجابته ليقينه بأن الآية الكريمة التى ذُكِّر بها .. إنما نزلت عليه هو شخصيا .. كأنما هى رسالة شخصية إليه .. ومن ثم استشعر عظم المسؤولية .. فأخذ العفو .. وأعرض عن الجاهلين.

رغم فداحة التهمة .. ومدى براءة الخليفة منها..

ومع هذا فلم يسلم من لسان .. «عيينة» .. والذى ألان الكلام لابن أخيه الحرّ .. مضمرا فى نفسه هذه البذاءة التى أحرج بها ابن أخيه أيما إحراج..

ولكن الموقف ينتهى لصالح الخليفة رضى الله عنه .. عندما شفع الحر لعمه

(١) الأعراف: ١٩٨.

(٢) فى رياض الصالحين برقم ٥٠.

بهذه الآية التى ألزم بها عمر كلمة التقوى . . فكان أحق بها وأهلها. . .

وكان فى نفس الوقت القاضى المنصف . . الخبير . . بطبيعة النفوس المريضة المتخصصة فى النيل من القيادة المؤمنة.

من أدب النقد :

لقد كان اتهام . . سعد . . موجعا. . وكانت تهمة . . أنه لا يحسن يصلى . . أشد وجعا!

ومن قبله اتهم . . أنس بن مالك . . رضى الله عنه. . أستغفر الله . . فإنه لم يكن اتهاما بقدر ما كان استفسارا فى إطار من الأدب الجم. . من صحابى جليل هو أبو أمامة رضى الله عنه إلى أنس . . رضى الله عنه . . يسفر فى النهاية عن وجه الحق المضىء. . الأمر الذى يجعل من النقد قيمة عظيمة . . إذا وافت فى إطارها الإسلامى الجليل:

عن سهل بن أبى أمامة: أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك . . فإذا هو يصلى صلاة خفيفة كأنها صلاة مسافر فلما سلّم قال أبو أمامة:

يرحمك الله! أرأيت هذه الصلاة المكتوبة أو شىء تنفّلته؟

قال أنس: إنها المكتوبة. وإنها لصلاة رسول الله ﷺ. ما أخطأت إلا شيئا سهوتُ عنه . ثم قال:

إن رسول الله ﷺ قال:

«لا تُشدِّدوا على أنفسكم فيشدَّدَ عليكم فإن قوما شددوا على أنفسهم. فشدد الله عليهم . فتلك بقاياهم فى الصوامع والديار. ﴿رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم﴾.

لقد انطلق الاستفسار هنا من قاعد الإخلاص والثقة المتبادلة بين الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . . فكان لابد أن ينتهى إلى الحق المبين. .

لقد صحح . . أنس. . الفكرة . . وعلى التصحيح مزيد من الدروس التى تلزم المؤمن كلمة التقوى . . حين عادت بأبى أمامة إلى سواء الصراط . . وسطا

بين التفريط والإفراط . .

وما تزال المعركة مستمرة[(١)]

ويمضى الزمان . . وما تزال المعركة مستمرة . . . ويأخذ المدرسون نصيبهم الأوفى من الاتهام:

فالمدرس متهم . . ودائما . . وبخاصة فى مواسم الامتحانات مع أن المدرس يقرأ ألف صفحة . . والتلميذ يكتب ثلاث صفحات.

ومع أن التلميذ يخاف السقوط . . وقد ينجح فى العام القابل . . والمدرس يخشى الظلم . . وهى أقسى . ومع هذا . . فإننا نضعه فى قفص الاتهام . .

وإن تعجب فعجب أن يوصيك واحد بطالب بليد كى تنجحه . .

وكأنما يقول لك: أنت تعودت الخيانة . . . فاستمر خائنا

[اللهم إنا نسألك الثبات . قبل الممات . . ونعوذ بك من الهفوات . قبل الفوات]

أما بعد: فما يزال الولى . . التقى . . ما يزال فى حماية الله تعالى . . ما قام بالواجب استقصاء واستيفاء.

وعندئذ [يكون قد خرج عن تدبيره . إلى تدبير الله تعالى . . ومن انتصاره لنفسه . . إلى انتصار الله له . وعن حوله وقوته بصدق توكله][(٢)].

ومن جملة ما يجب اتقاؤه . . ما يزعمه البعض ممن يدّعون حبنا أنهم أولياؤنا . . بينما هم في نفس الوقت يكرهون ديننا . . ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[(٣)].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(١) الفكرة للشيخ على الطنطاوى .

(٢) فتح البارى .

(٣) البقرة : ٩

الفهرس

مطبعة جزيرة الورد


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
تليفون: ٣٥٧٨٨٢